مقدمة فى لاهوت التحرير الإسلامى
(الإسلام أيديولوجية الفقراء)

اسم الكتاب : مقدمة فى لاهوت التحرير الإسلامى (الإسلام أيديولوجية الفقراء)
المؤلف : د. محمد مورو
الطبعة : الأولى
سنة النشر : ٢٠٠٥م - ١٤٢٦هـ
الناشر : مركز يافا للدراسات والأبحاث - القاهرة
ص ب ٨٠٦ ـ المعادى — القاهرة ت / فاكس ٢٨٠٦٥٩٦ — ت/٢٧٨٢٤٠٢
الموقع على شبكة الانترنت الدولية : www.yafa.20m.com
E – mail : yafafr @ hotmail . com

الإسلام أيديولوجية الفقراء
مقدمة فى (لاهوت) التحرير الإسلامى

د٠ محمد مورو

آلة شيطانية ضخمة ، تروسها بشر ، تقتل الأطفال ، تمتص دماء البشر ، تعذب المرأة وتظلمهـا ، تجتث جذور الثقافات تنشر المذابح والتطهير العرقى ، وحروب الإبادة ، والطائفيـة والعنصـرية ، والاستعمار ، والنازية ، والفاشية ، والعنف،والقهر،وتدمير القيم ، ونهب ثروات الشعوب والأفـراد بلا رحمة وبلا هوادة ،وفى كل يوم جديد يزداد جشع تلك الآلة الشيطانية حتى انها بدأت تأكل نفسها وتنفصل حتى عن اطارها الاجتماعى لتصبح هى ذاتها مستقلة عمن صنعوها وخطراً عليهم أيضاً ٠

هذه الآلة الشيطانية هى بالتحديد النتيجة الحتمية للصعود الغربى بدءاً مـن الكشـوف الجغرافيـة والاستعمار وسباق الاعلام وانتهاء بالبورصات العالمية التى تعمل ٢٤ ساعة فى الـــ ٢٤ سـاعة والخبراء والحاسبات الضخمة والأقمار الصناعية والبث المباشر ، البنك الدولى والجات وصـندوق النقد الدولى ومجلس الأمن وقوات حفظ السلام الدولية ! وأخيراً الشركات العابرة للقوميات والتـى أصبحت ميزانية واحدة منها أكبر من ميزانية دول ، وهى مجتمعة ميزانيتها أكبـر مـن ميزانيـة الولايات المتحدة الأمريكية نفسها،أنه عصر الفوضى واللاثقافة واللاحضارة ٠

وضحايا هذه الآلة بالملايين ، بل آلاف الملايين ، شعوب كاملة ، أطفال ، نساء ،رجال ، حضـارات ، ثقافات ، فقر ، جهل مرض ، مدن الصفيح وانسان بلا جذور ، تخريـب بحـث للهياكـل الاقتصـادية والاجتماعية ليحل محلها كومة ضخمة من الخردة وإناس بلا مستقبل وبلا حاضر أيضاً ٠

هل نقول أن هذه الآلة الشيطانية هى المنظومة الحضارية الغربية باعتبار أن تلك المنظومة الحضـارية الغربية هى التى أفرزت تلك الآلة الشيطانية ؟ نعم ، ولكن أيضاً لا لأن تلك الآلة أصبحت نفسها أكبر من تلك المنظومة واستقلت عنها ٠

وليس هناك من حل بالطبع سوى تدمير هذه الآلة الشيطانية – الثورة – ثورة المحـرومين والفقـراء والمهمشين والمقهورين فى كل مكان ، ثورة تضم كل ضحايا هذه الآلة ، الأفارقة ، السود ، الشـعوب المطحونة فى آسيا وأمريكا اللاتينية ، ضحايا تلك الآلة داخل الغرب نفسه كالمرأة مثلاً ، المرأة الغربية التى دفعت ثمن الشذوذ والإباحية وتعانى آلاماً مبرحة من مجتمع بلا قيم ولا ضمير.

وعلينا الآن أن نحدد طبيعة هذه الآلة الشيطانية وجذورها والمنظومة الاجتماعية التـى أفرزتهـا ، وكذلك تطوراتها حتى وصلت إلى حالتها الراهنة البشعة ٠

وإذا كان من المفيد أن نبدأ بشيء ، فهو المنظومة الاجتماعية والحضارية التى أفرزت تلك الآلة الشيطانية ، وهى المنظومة الحضارية الغربية التى أعطت تلك الآلة سماتها الثابتة والمتغيرة أيضاً ، والحضارة الغربية حضارة تقوم على الوثنية والعنف والقهر ، ولا يمكن فهم هذه الحضارة ولا ميكانيزمات عملها بعيداً عن سمات العنف والقهر والوثنية ، الحضارة الغربية هى حضارة إغريقية هيلينية فى جوهرها ، أما المسيحية فلم تكن إلا قشرة خارجية لتلك الحضارة ، ذلك ان المسيحية تحولت الى دين اغريقى وثنى داخل الغرب ولم يتحول هذا الغرب الى المسيحية ، وعلينا أن ندرك فى هذا الصدد أن المسيحية دخلت الى الغرب عن طريق امبراطور آمن بها وفهمها على طريقته الاغريقية ثم فرضها على شعبه فرضا ، ثم تبنت ممالك هذه الديانة وأكرهت الآخرين على اعتناقها وإلا تعرضوا للذبح ، وليس التنصير الوحشى للساكسونيين على يد القديس بونيفاس إلا مجرد نموذج ينطبق على كل الحالات تقريباً، وهكذا تحولت المسيحية الى ديانة إغريقية ، وبدلاً من التسامح المسيحى ، أصبح العنف جزءاً أصيلاً من المسيحية الغربية .

وحتى اليوم يتم تنصيب بابا روما وفقاً لقواعد البروتوكول الخاص بتنصيب كهنة المعابد الاغريقية ، أضف الى هذا أو قل نتيجة لهذا فإن الكاثوليكية لعبت دوراً مهماً فى عملية الاستعمار الغربى للعالم ، وكانت دائماً طليعة للاستعمار وباركت دائماً أو شاركت فى عملية قهر ونهب الشعوب الأخرى على يد الغرب فى المرحلة الاستعمارية حتى أن الاستعمار فى رموز كان عبارة عن عسكريين وتجار ومبشرين !

والبروتستانتينية ، لم تكن إلا تطوراً فى المسيحية الاغريقية واكب مرحلة أخرى من مراحل تطور آلة العنف والقهر الغربى ولم تكن اصلاحاً دينياً بل كانت وصفة عالمية للنجاح فى الأعمال التجارية ، ولم تكن عقلانيتها المزعومة الا نفعية حقيقية وباختصار كان الاقتصاد السياسى هو الديانة البروتستانتينية الجديدة ولا ننسى أن المسيحية الغربية التى أصبح العنف سمتها الرئيسية ارتبطت بالمذابح الدينية والحروب الطائفية ومحاكم التفتيش !

مع الصعود الغربى إبان ما يسمى بعهد النهضة الأوروبية ، تم بعث الثقافة الاغريقية والهيلينية ، وتم بعث الدول والفكرة القومية وظهرت البروتستانتينية لتلائم قيم العقلانية والتنوير والنفعية وأصبحت ديانة جوهرها الاقتصاد السياسى وبدأت مرحلة الاستعمار ، أو ما يسمى بسباق الاعلام حيث تسابقت الدول الأوروبية على استعمار العالم ، من خلال إبادة شعوب أمريكا وأستراليا ، ومن خلال نهب ثروات تلك القارات المكتشفة وكذا نهب ثروات الشعوب فى آسيا وأفريقيا ، ثم استرقاق

سواعد السود لبناء القاعدة الانتاجية للغرب ، ومن هذا التراكم للثروات المنهوبة واستخدام الرقيق تراكمت الأموال ، وظهرت بنوك لتمويل عمليات الاسترقاق أو التجارة خلف البحار وظهرت الثورة الصناعية أو التقدم الصناعى الغربى والرأسمالية التى أصبحت منذ تلك اللحظة سمة رئيسية من سمات الآلة الشيطانية ، من سمات الغرب والحضارة الغربية ، ويجب أيضاً أن نضع فى اعتبارنا أن الرأسمالية أصبحت أداة قاسية واعدة فى المزيد من الاستعمار وفتح الأسواق والنهب والقهر وتطوير الأداة العسكرية للغرب ومع عام ١٩١٤ كان معظم العالم خاضعاً للاستعمار الأوروبى ، ولكن كان من الطبيعى أن الآلة الشيطانية لا تكف عن العنف فبعد أن مارست هذا العنف والنهب على العالم بأسره مارسته أيضاً مع نفسها ، فكانت الحرب العالمية الأولى والثانية .

واستطاعت الآلة الغربية الشيطانية أن تطور نفسها ، فكانت مرحلة ما يسمى بتصفية الاستعمار ، أو قل مهزلة تصفية الاستعمار ذلك انه لم يكن أكثر من تطوير للوسائل فى عملية النهب والقهر الغربية المستمرة .

ويعبر المفكر الفرنسى ك موريل عن ذلك قائلاً : " ان أروع ما حققه الاستعمار هو مهزلة تصفية الاستعمار ، لقد انتقل الرجل الأبيض الى الكواليس ، لكنه لايزال مخرج العرض المسرحى " .

وبدلاً من العسكر والتجار والمبشرين ، أصبحت هناك حكومات وطنية تقوم بمهمة القهر نيابة عن عسكر الغرب وتقوم أيضاً بالوكالة فى تسهيل عملية النهب ، أصبح هناك جيش وطنى وشرطة وطنية مهمتهما الوحيدة القمع والقهر ، وأصبح هناك وكلاء تجاريون يمررون عملية النهب ، وأصبح هناك مثقفون مغتربون يساهمون فى اجتثاث جذور الثقافة الوطنية وترويض الانسان المحلي وتنويمه دائماً .

تطورت آلة النهب والقهر ، فأصبحت عبارة عن خبراء وبورصات عالمية تعمل ليلاً ونهاراً، أقمار صناعية ومحطات بث مستمرة لاجتثاث الثقافات ، مجلس أمن وقبعات زرقاء شركات عابرة للجنسيات ، شعارات ومبادىء تسهل عملية النهب وتزيده قوة مثل حرية التجارة ، حقوق الانسان ، التنمية التصنيع ، التنوير .. الخ .

والأمر الآن أشبه بمركز كبير للنهب تمتد منه شبكة ضخمة من الأنابيب الى كل مكان على وجه الأرض ، انه وحش مفترس يمد خراطيمه فى كل اتجاه يمتص دماء الآخرين ويتغذى على خلاياهم العصبية ويحولهم الى حالة غير مسبوقة من البؤس ، وهناك آلات رفع ضخمة تساهم فى سرعة تدفق الثروات المنهوبة مثل البنك الدولى ، صندوق النقد الدولى ، البورصات ، حرية التجارة ، المؤتمرات العالمية فى مجلس الأمن .. الخ ، وحتى القروض والمنح التى تمنح للمنهوبين من وقت لآخر ليست الا وسيلة

لتنظيف أنابيب النهب وزيادة كفاءتها والمزيد من بناء وتشييد محطات لرفع الثروات المنهوبة والقضاء على أية نتوءات اقتصادية أو ثقافية أو هياكل اجتماعية تعرقل أو تبطىء عملية النهب ٠

وفى كل يوم يزداد الوحش جشعاً ويزيد جوعه ، وفى كل يوم تتطور الآلة ، آلة النهب والقهر الوحشية وتزداد شراهة ويزداد الضحايا كما ونوعا بالتالى ، وآخر التطورات فى هذا الصدد هو الشركات العابرة للجنسيات ، وبدلاً من ان تقوم بالمهمة دول قومية مثل هولندا ثم انجلترا ثم الولايات المتحدة مثلاً ، أصبحت الفكرة القومية وسيادة الدول ذاتها فى مهب الريح ، وإذا كانت تلك الشركات العابرة للجنسية اليوم يمثل رأس مال احداها أكبر من ميزانية دولة ، وتمثل ميزانيتها مجتمعة أكبر من ميزانية الولايات المتحدة الأمريكية ذاتها فإن الأمر مرشح للاتساع فى هذا الاتجاه ، وهكذا فنحن أمام تطور جديد لشكل وطبيعة النهب سيؤدى بالضرورة الى قيام علاقات جديدة واقتصاد سياسى جديد ، ومزيد من الضحايا الذى لن يفلت منه هذه المرة حتى الغرب ذاته ، فالأمر أصبح أكبر من الدول القومية وحتى من قارة بأكملها ٠٠ ان الوحش أصبح غير خاضع لأحد ولم يعد له مروضون أو مسيطرون ٠٠ أنه المزيد من البؤس ٠٠ والفوضى والجنون ٠

إن أحد علامات هذه الفوضى هو تنميط الانسان وفقاً لثقافة واحدة ، وإذا كان الغزو الثقافى والبث المباشر وغير المباشر وسيطرة الغرب على وسائل مهيمنة لنشر ثقافة معينة كان بهدف اجتثاث جذور الثقافات الاخرى وتحويل الانسان من خاضع بالقوة للنهب الى مدمن لهذا النهب بمعنى أن يسعى هو نفسه الى الوحش مصاص الدماء ويطلب منه ويلح ان يمص دمه فإن الأمر حتماً سوف يفوق هذا التصور الى عالم بلا ثقافة ولا حضارة على الاطلاق أو نهاية العالم ٠٠ ولكن ينبغى أن يكون نهاية الغرب وحده وليس نهاية العالم وهذا يقتضى الثورة لتحطيم الآلة الشيطانية ٠

على أى حال يجب أن نفكر فى معنى العالمية ، الثقافة العالمية وأن نفكر فيما يروجون له من قيم حضارية واحدة وغيرها ، وأن نديم التأمل فى معنى أن مراكز البث الإعلامى الغربى تسيطر على صناعة الأخبار والمعلومات والفنون وبالتالى المشاهد والأذواق والأوامر فى اطار انه تغريب للعالم بالقوة بهدف قتل واقتلاع جذور الثقافات الاخرى ، وأيضاً هو فى النهاية معاداة لكل ثقافة ، لأنه فى عالم ذى ثقافة واحدة فإنه لا ثقافة على الاطلاق ! أنه عصر القرود والكائنات المنحطة ٠

سنبحث الآن عن الضحايا من جهة ٠٠ والمستفيدين من جهة أخرى من آلة القهر والنهب الشيطانية مع الأخذ فى الاعتبار ان الضحايا يزدادون دائماً كماً ونوعاً ، وأن المستفيدين يقلون باستمرار لأن الآلة الشيطانية تزداد شراهة بمتوالية هندسية ، وسنبحث عن الحل أيضاً ٠٠ سنبحث عن العدل المفقود وهو بحث الانسان الدائم ٠

وسنبدأ بسؤال ساذج وهو : هل يمكن إقناع المستفيدين بالكف عن النهب والقهر ؟ هل يمكن إيقاف عمل الآلة الشيطانية عن طريق الإقناع ؟ أى هل يمكن تحقيق عدل شـامل أو حتـى جزئـى عـن الطريق السلمى ؟ والاجابة الوحيدة هى لا ٠٠ لأن طبيعة الآلة وجوهرها عدوانى ، قهرى ، نهبى ، ومن العبث طبعاً إقناع الوحش بالكف عن امتصاص الدماء ٠

إذن لا طريق إلا الثورة ، ولكن ما هى أيديولوجية تلك الثورة والى أى جذر اجتماعى وثقافى تستند ، ومن هم جنودها ؟! وهذا سؤال سوف نجيب عليه بعد فرز المعسـكرين ، معسـكر الاسـتكبار ، وكهنة الآلة الشيطانية ومعسكر الضحايا وبالتالى جنود الثورة ٠

وسنبدأ فى دراسة معسكر الاستكبار والمستفيدين ، وسوف نستطرد قليلاً باتجاه الماضـى ٠٠ فـى بداية الاستعمار كان من الممكن أن نجد فى المستفيدين دول قومية ، أو حتى طبقات اجتماعية فقط داخل هذه الدول الاستعمارية التجار ، البرجوازية الصناعية ، العسكر ، المبشرين ٠٠ أما الآن ومع التطور الهائل للآلة الشيطانية مع الشركات العابرة للجنسيات ومع ازدياد شراهة آلة النهب والقهر لم يعد هناك سوى كبار رجال المال وأصحاب الشـركات العـابرة للجنسـيات والجنـرالات الكبـار وأصحاب البنوك الكبرى وشبكات البث ، وعلى مستوى أقل الخبراء ، المثقفون المغتربـون الـذين يبيعون كلماتهم لقاء شىء من دماء الفريسة والمرتبطون بالترويج للآلـة الشـيطانية ، الـوكلاء التجاريون والحكام المحليون فى العالم المستضعف الذين يشاركون فى ذبح شعوبهم ونهبهم لقـاء ثمن كبير أو صغير ٠

أما معسكر الضحايا فهم كل الشعوب المقهورة والمنهوبة فى آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية، وهم أيضاً المرأة فى الغرب التى حولتها الآلة الى سلعة تجارية والتى اتعسها السياق الاجتماعى الغربـى الـذى يسمح بالشذوذ ، فمثلاً لو كان هناك ٣٠% من هذه المجتمعات شواذ وهؤلاء يستهلكون مـثلهم فـى أشباع شذوذهم ، فماذا يبقى للمرأة الغربية سوى العنوسة والحرمان ، ثم لماذا تتحمل المرأة مثلاً عبء الجنين غير الشرعى وحدها وحتى لو كان هناك حديث عن إجهاض آمن ٠٠ ليس هناك طبعاً إجهاض آمن لأنها عملية جراحية فى النهاية لها آثارها الصحية مهما كانت الوسائل الصحية متقدمة ، أليس هذا دليل على الظلم الواقع على المرأة ؟ لماذا لا تحتفظ بجنينها ويتحمل الرجل معها أعباء ولادته وتربيته بدلاً من اجهاضه وقتله ؟ المرأة إذن فى الغرب ضمن معسكر الضحايا وضمن جنـود الثـورة بالتـالى والطبقة العاملة الغربية وصغار الموظفين والعاطلين أيضاً والأطفال اللقطاء كل هؤلاء جنود فى الثورة لأنهم ضحايا واذا كان الغرب فى مرحلة تاريخية من تطور آلة النهب والقهر قـد نجـح فـى رشـوة البروليتاريا وتحييدها بالتالى عن طريق شىء من المكاسب الاقتصادية والاجتماعية فإن استمرار تطور

الآلة وبالتالى زيادة جشعها ونهمها اللانهائى سيجعل من المستحيل استمرار تقديم هذه الرشوة ، وبالتالى فإن هؤلاء الآن أو غداً سيجدون أنفسهم فى معسكر الثورة ويجب الأخذ فى الاعتبار هنا تزايد معدلات البطالة والتخلص من العمالة باستمرار فى الغرب ، وهذا أمر مرشح للاتساع والتفاقم ٠

بقى علينا أن نبحث فى أيديولوجية تلك الثورة ، وينبغى فى البدء أن نقرر حقيقة لا يمكن الشك فيها من منظور فلسفى ومن منظور واقعى وتجريبى أيضاً ، ذلك أن أيديولوجية أية ثورة لا يمكن ان تكون مستمدة من نفس الأرضية الاجتماعية والفلسفية بل والمعرفية التى أنشأت الأوضاع التى سوف نثور عليها ، ولعل هذا بالتحديد كان السبب فى فشل تجربتين ثوريتين هما الثورة الاشتراكية الماركسية ، ولاهوت التحرير المسيحى فى أمريكا اللاتينية، ولاشك الآن ومن منطلق تجريبى ومعرفى ان ثورة تستند فى أساسها الايديولوجى والثقافى على ثقافة أفرزت الحالة التى ينبغى الثورة عليها هى ثورة زائفة ، بل هى تكريس وتقوية للأوضاع التى يجب الثورة عليها ، لابد إذن ان تكون الأيديولوجية الثورية نابعة من سياق ثقافى مخالف بل وعدائى للأرضية الفلسفية والثقافية التى أفرزت الحالة والظاهرة التى تستهدف الثورة الاطاحة بها ٠

فالماركسية مثلاً نشأت من قلب الفلسفة الأوروبية ، وبالتحديد الألمانية ، واستندت فى تحليلها الاقتصادى والتاريخى على علوم الاقتصاد السياسى وعلم التاريخى الغربى والأوروبى بالتحديد ، ولذلك فشلت وما كان لها إلا أن تفشل بل ان فشلها الطبيعى كان دليلاً جديداً على فساد المنظومة الحضارية الغربية برمتها ٠

يقول المفكر الفرنسى سيرج لاتوش فى كتابه تغريب العالم : " ان الاشتراكية كما تحققت فى الواقع ليست سوى شكل خاص مختلف من النظم الرأسمالية والمجتمعات الغربية ، فنحن نلقى بكل تأكيد التصنيع مع التمدين وتحويل الجماهير إلى بروليتاريا لكن بوجه خاص عبادة الإله والتقنية والعلم والتقدم واستئناف مشروع الحداثة المتمثل فى قهر الطبيعة ٠٠ انها نفس ميكانيزمات الرأسمالية ٠

ويقول : " الرأسمالية مجرد آلية – طبيعية عند الليبراليين ، اصطناعية عند الاشتراكيين ، وبالتالى فالرأسمالية هى الليبرالية والاشتراكية معاً وهى مظهر من مظاهر الخصوصية الغربية للغرب " ويضيف "ان النموذج السوفيتى مثل شكلاً مختلفاً للمشروع الغربى أكثر مما مثل بديلاً حقيقياً له " ٠

ويقول المفكر الانجليزى أرنولد توينبى " ان المنافسة بين الاتحاد السوفيتى – السابق – والولايات المتحدة الأمريكية على زعامة العالم وبين الشيوعية والمذهب الحر بالتالى على اجتذاب ولاء البشرية هو موضوع نزاع عائلى داخل أسرة المجتمع الغربى " ٠

ولنفس الأسباب كان من الطبيعي ان تفشل أيضاً مسألة لاهوت التحرير المسيحى فى أمريكا اللاتينية وأن تكون ثورة زائفة أيضاً ، لأن جذرها الثورى نبع أيضاً من نفس المنظومة الحضارية الغربيــة ومن نفس الوضع الاجتماعى الذى كان ينبغى الثورة عليه ، فلاهوت التحرير المسيحى فى أمريكـا اللاتينية ينبع من الكاثوليكية وهى مسيحية غربية وجزء من المكون الثقافى والحضــارى الغربــى تحمل نفس سماته وعيوبه أيضاً ، بل أكثر من هذا فإن الكاثوليكية بالتحديد تتحمل جزءاً كبيراً مــن جريمة استعمار أمريكا اللاتينية وما حدث فيها من إبادة للسكان الأصليين ثم نهب مستمر فيما بعـد لثرواتها وشعوبها ، وفى هذا الصدد يقول سمير مرقص فى مقال له فى مجلة القاهرة عدد ينـــاير ١٩٩٤ تحت عنوان " تجربة لاهوت التحرير " " كانت الكنيسة الكاثوليكية جزءاً من المشروع الكلى لغزو و استعمار شعوب القارة الجديدة وقد ساهمت الكنيسة بفاعلية فى فرض القانون الاســتعمارى على المواطنين الأصليين للقارة اللاتينية ، ومن المعروف تاريخياً ان البابا الكسندروس السادس هو الذى قضى بتقسيم القارة الجديدة بين الأسبان والبرتغال " .

كانت الدودة إذن داخل الثمرة فى كل من الثورة الاشتراكية ولاهوت التحرير المسيحى فــى أمريكـا اللاتينية لأنها نتجت من نفس الشجرة التى كان ينبغى أصلاً قطعها وحرقها ، وكان من الطبيعى ان تفسد الثمرة .

وعلينا إذن أن نبحث عن جذر ايديولوجى للثورة العالمية على الآلة الشيطانية آلة النهــب والقهــر الغربية خارج شجرة الحضارة الغربية .

ينبغى إذن ان تنتمي الى ثقافة مغايرة ، وذات جذر حضارى مختلف ، وبما أن جنود الثورة هم كــل شعوب آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية بل والمرأة والعمال ، والعاطلون وصــغار المــوظفين فــى أوروبا وأمريكا فإن أيديولوجية الثورة ينبغى ان تستند الى حضارة ذات قــيم عالميــة ولاشــك ان الاسلام هو وحده الذى يمتلك كل هذه الخصائص التى ترشحه لأن يكون جذراً ثقافياً لتلك الثــورة ، فالحضارة الاسلامية حضارة عالمية بكل المقاييس ، فمن ناحية فالخطاب الاسلامى لم يوجــه الــى منطقة جغرافية أو عرق بشرى معين بل للعالم كله " وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين " ، ومن ناحية أخرى فإن الحضارة الاسلامية ساهم فيها الأسود ، الأصفر والأبيض والأحمر ، الافريقى والآسيوى والأوروبى ، التركى والهندى والعربى والفارسى ٠٠ الخ ، واذا كانت التجربة قد أثبتــت ان تلــك الحضارة استوعبت مساهمات الجميع فكانت عالمية بالتجربة ، وان خطابها عالمى فى أصله فإنهــا وحدها القادرة مرة أخرى على احتضان الثورة العالمية الجديدة وان تكون جذراً أيديولوجياً لها .

وكذلك فإن الحضارة الاسلامية – وانطلاقاً من الاسلام – لم تحاول إكراه أحد على اعتناق الدين الاسلامى " لا إكراه فى الدين " ·· ومن هنا نجد أنه مازال فى العالم الاسلامى أقليات مسيحية ويهودية ·· الخ بل نجد أن تلك الأقليات ومن خلال جو التسامح اندمجت فى الحضارة الاسلامية دون أن تدخل الاسلام ، ما يدل على أن الاسلام – وهو دين ربانى – يمكن ان تكون حضارته وثقافته أيديولوجية لغير المسلمين ·

نلاحظ أن الحضارة الأوروبية غير عالمية رغم زعمها وترويجها لهذا المصطلح ، لأن العالمية تقتضى معاييرا عالمية ، ولا يمكن لحضارة أفرزت العنصرية ونهب الآخر ان تكون عالمية ، ولا يمكن لحضارة قامت على استلاب الآخر وقهره ان تكون عالمية ·

وبالإضافة الى ما سبق فإن الاسلام لم يعرف العنصرية " كلكم لآدم وآدم من تراب " لا فرق بين عربى ولا أعجمى ولا أسود ولا أبيض " وكذلك دعا الى استثمار البيئة وليس قهرها ، ودعا الى العدل والانصاف والحرية فالجهاد الاسلامى مثلاً كفريضة على المسلمين يتوجه لإزالة القهر والنهب وازالة الاستكبار والاستبداد ومحكوم أيضاً باعتبارات وقيم رفيعة بحيث لا يكون هناك عدوان الا على الظالمين " قاتلوهم حتى لا تكون فتنة " فتنة الظلم والكفر والنهب ، والقهر ، " فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين " ، فغايات الثورة الاسلامية وبالتالى العالمية هى القضاء على النهب والقهر والعنصرية والتغريب وتدمير الآلة الشيطانية الغربية وتحقيق العدل والمساواة واللاعنصرية بل والمجتمع اللاطبقى واحترام كرامة الانسان أليست نفسها نفس المبادىء الاسلامية ؟!

وكراهية الظلم – بل وجعل الثورة عليه فريضة إسلامية هى من الأمور المعلومة من الاسلام تماماً ، ومالكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والوالدان " وفى الحديث القدسى ·· ولانتقمن ممن رأى مظلوماً فقدر ان ينصره فلم يفعل " أى أن رؤية الظلم ولو على الآخرين وعدم الثورة على الظالم إنصافاً للمظلوم أمر يستوجب انتقام الله تعالى وغضبه ·

ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم " لا يقفن أحدكم موقفاً يقتل فيه رجل ظلما فإن اللعنة تتنزل على من حضر حين لم يرفعوا عنه ، ولا يقفن أحدكم موقفاً يضرب فيه رجل ظلماً فإن اللعنة تتنزل على من حضره حين لم يرفعوا عنه " ·

وفى إطار الآداب والقيم المعروفة للثورة والجهاد الاسلامى " انما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون فى الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم " ·

والتراث الاسلامى نصوصياً وحضارياً غنى بالدعوة إلى الثورة على الظالمين وفق قيم وآداب رفيعة تحول بين الخلط بين الثورة والفتنة والبغى ، وتحدد هدف الثورة " الظالمون " ولاشك ان آلة النهب والقهر الغربى وهؤلاء المستفيدين بها ظالمون جائرون لهم ضحايا ومظلومون بالملايين والأمر

يستحق الثورة وحتى فى اطار انصاف الفقراء والمحرومين وتحقيق العدل الاجتماعى فإن التـراث الاسلامى غنى بالنصوص والمواقف والرؤى والمناهج التى تجعل منه جـذراً ثقافيـاً لأيديولوجيـة الثورة العالمية ثورة الفقراء والمطحونين والمحرومين " ليس منا من بات شبعان وجـاره جـائع " والجار هنا قد يكون فرداً أو أسرة أو دولة أو قارة أو حتى كوكب" من كان عنده فضل ظهر فليعـد به على من لا ظهر له ، من كان عنده فضل مال ‥ أو فضل زاد أو ملبس ‥ الخ فليعد به علـى من لا مال له له ‥ الخ ، وهى دعوة لتحقيق المجتمع اللاطبقى ، ودعوة أيضاً للثورة على هؤلاء الذين يمنعون مازاد عن حاجتهم فى حين يحتاج إليها الآخرون .

وعلى بن أبى طالب يقول : " ما متع غنى الا بما حرم منه فقير " أى أن تراكم المتعة والغنى والمال يأتى من سرقة حقوق الفقراء سواء بسوء توزيع الثروة المتاحة – السرقة من المنبـع– أو بأكـل فائض قيمة عمل هؤلاء الفقراء بإعطائهم أقل من حقهم فى عملهم وكـدحهم ، أو بتعطـيلهم عـن العمل أو الفساد أو الرشوة ‥ الخ .

وآخيراً قول أبى ذر الغفارى رضى الله عنه : " عجبت لمن لا يجد قوت يومه ثم لا يخرج على النـاس بسيفه " وهو يؤكد هنا وجوب ومشروعية ثورة الفقراء والمحرومين وهكذا فالإسلام من حيث عالميته ، ومن حيث كونه ثقافة مغايرة ومعادية للثقافة والحضارة الغربية ، وبحكم نصوصـه وتراثـه الثـورى عموماً والدعوة الى ثورة الفقراء والمحرومين خصوصاً يصلح كجـذر أيـديولوجى للثـورة العالميـة المنشودة .

ويبقى هنا ان يضطلع المسلمون بعبء الثورة العالمية كجنود لها ، وكطليعة أيضاً لبـاقى المطحـونين والمحرومين فى العالم وأن يضطلع علماء الاسلام بتقديم الاسلام كأيديولوجية للثورة العالمية والأمر هنا ليس تفضيلاً بلا مبرراً للإسلام على غيره ، بل لأن الثقافات الأخرى التى نحترمها ولا نريـد القضـاء عليها هى ثقافات إما غير ثورية أصلاً ، أو انها غير عالمية ، أو أنها غير قادرة من الناحية الفلسفية على مواجهة ناجحة مع الحضارة الغربية وبالتالى مع آلة النهب والقهر الغربى .

إن الأمر ليس أكثر من قراءة علمية محايدة ، قراءة تقول بأن عدة قرون من الظلم والقهر والفقـر والنهب والبؤس على يد الحضارة الغربية وآلتها الشيطانية ينبغى أن تنتهى ولـن يكـون ذلـك إلا بالثورة التى يشارك فيها كل الضحايا وهذه الثورة تحتاج إلى جذر ثقافى وأيديولوجى لابد ان يكون عالمياً ومعادياً للحضارة الغربية فى نفس الوقت ويحمل تراثاً ثورياً واضحاً، وليس هناك إلا الاسلام كدين وكحضارة وكأيديولوجية للثورة الذى يمكنه ان يكون هذا الجـذر الثقـافى للثـورة العالميـة المنشودة .

من عبيد إلى أمراء
دراسة فى صعود المستضعفين فى صدر الإسلام

تشكل تجربة صعود المستضعفين فى صدر الاسلام ، نموذجاً فذاً لعملية ثورية كبرى وحـراك اجتماعى لا نظير له ، منغماً برنين صاخب ولكنه عذب رغم انه يبدو للوهلة الأولى صـامتاً ، وربما كان هذا الصمت الملحوظ علامة على عبقرية الممارسة ، التى حولت هذه التجربة الفذة الى شىء طبيعى حتى لا تكاد تحسه أو تسمعه حتى كان الأمر لا يبدو ملفتاً للنظر مـن شـدة كونه بديهية لا تلفت نظر الرجال الذين مارسوه ٠

ولاشك أن تجربة الاسلام الثرية فى هذا الصدد على مستوى الـنص والتطبيـق يمكـن أن تصبح جذراً ثقافياً ومعرفياً لكل ثورة تحريرية ترفـع رايـة المستضـعفين فـى مواجهـة مؤسسات الاستكبار ٠

أى تجربة عظيمة تلك التى ترفع سلمان الفارسى الذى كان عبداً عند أحد يهود المدينة فيصبح أميراً على الكوفة – أهم إمارات الدولة الاسلامية فى ذلك الوقت من خلافة عمر بن الخطاب!

هذا العبد الذى يتسابق المهاجرون والأنصار بل ورسول الله – صلى الله عليه وسلم – لينسبه كل الى نفسه ، ففى يوم الخندق وقف الأنصار يقولون سلمان منا ووقف المهاجرون يقولون بل سلمان منا ، فيسمعهم الرسول صلى الله عليه وسلم فيقول " سلمان منا آل البيت " ٠

والذى يصبح للمسلمين معلماً ومرشداً وحكيماً فيقول عنه الرسول صلى الله عليه وسلم " لقـد أشبع سلمان علماً " ٠

ويلقبه على بن أبى طالب – كرم الله وجهه – بلقمان الحكيم ، فقد سئل على عنه بعد موتـه فقال "ذاك امرؤ منا والينا أهل البيت من لكم بمثل لقمان الحكيم " ٠ وهكذا فعلى يفخر بانتساب سلمان إلى أهل البيت النبوى ، بل ويباهى به سائليه ٠

إنه سلمان الفارسى ، الذى كان ذات يوم عبداً ، فأصبح بالإسلام رجلاً يخرج الخليفـة بنفسـه لاستقباله فقد جاء سلمان الى المدينة زائراً فى خلافة عمر بن عبد الخطاب فجمع عمر أصحابه وقال لهم : هيا بنا نخرج لاستقبال سلمان ٠٠

••••••

وأى تجربة تصنع من عبد الله بن مسعود ، ذلك العبد الذى يرعى الغنم فى مكة لعقبة بن أبى معيط ، ذلك الرجل الضعيف الجسم النحيف ، القصير القامة ، الفقير الأجير .. تصنع منه هـذا الرجـل الذى يكون أول من يجرؤ على إسماع قريش بكل وجهائها وزعمائها آيات القرآن علنـاً وبصـوت مرتفع .. فيتفوق بذلك على كل المسلمين الذين أسلموا فى تلك الفترة من حياة الدعوة الاسـلامية فى بواكيرها ، والذين كان منهم القوى والشريف والغنى .. هذا الرجل - عبد الله بن مسـعود - يصبح يوماً وزيراً فى الكوفة مع أميرها فى ذلك الوقت سلمان الفارسى فى خلافة عمر بن الخطاب. ويصبح بعد الاسلام من أفقه المسلمين وأكثرهم علماً ، بل وأحسنهم تلاوة للقـرآن الكـريم ، فيتعلم منه كبار الصحابة كيف يتلون القرآن ، ويتعلمون منه أيضاً فقه الدين ويصبح مرجعـاً لهم فى أمور الدين .

يقول عنه الرسول صلى الله عليه وسلم " من أحب أن يقرأ القرآن .... كما أنزل ، فليقـرأه على قراءة ابن أم عبد " أى عبد الله بن مسعود ، والذى يطيب للرسول صلى الله عليه وسـلم ان يستمع الى القرآن من فمه .. وهو الذى عليه انزل ، ويقول عمر بن الخطاب "لقد ملـئ فقها" . ويقول عنه أبو موسى الأشعرى " لا تسألونا عن شيء مادام هذا الحبر فيكم " .

اجتمع نفر من الصحابة يوماً عند على بن أبى طالب كرم الله وجهه فقالوا له "يا أمير المؤمنين ، ما رأينا رجلاً كان أحسن خُلقاً ولا أرفق تعليماً ولا أحسن مجالسة ، ولا أشد ورعاً من عبـد الله بن مسعود " ، فيقول على " نشدتكم الله أهو صدق من قلوبكم ؟ قالوا نعم " قال " اللهم إنى أشهدك ، اللهم إنى أقول فيه مثلما قالوا وأفضل " " لقد قرأ القرآن فأحل حلاله ، وحرم حرامه، فقيه فى الدين ، عالم بالسنة " .

وهو دون غيره من المسلمين يلقب بصاحب السواد أى موضع سر الرسول صـلى الله عليـه وسلم وصاحب نجواه .

ثم هو الذى يقول عنه الرسول صلى الله عليه وسلم " لو كنـت مـؤتمراً أحـداً دون شـورى المسلمين ، لأمرت ابن أم عبد " ، بل ويجعله إماماً للهدى لكل الصحابة فيقول عنه "تمسـكوا بعهد ابن أم عبد .. " أى تجربة تلك التى صنعت من هذا العبد كل هذا الذى ذكرناه بل ويعرف الجميع له الفضل ، ويعرف أيضاً عن نفسه - بلا عقد أو حساسيات ، فيقول هو عن نفسـه " والله ما نزل من القرآن شيء ، الا وأنا أعلم فى أى شيء نزل ، وما أحد أعلم بكتاب الله منى ، ولو أعلم أحداً تمتطى إليه الإبل أعلم منى بكتاب الله لأتيته وما أنا بخيركم " .

من عبد إلى وزير ..
من عبد الى معلم ومدرسة فى الفقه ومنارة هداية للمسلمين .
من عبد الى صاحب السواد .
من عبد الى أعلم الناس بكتاب الله قراءة وتفسيراً وأسباب نزول ، فقيه فى الدين عالم بالسنة.
من عبد الى إمام لأجيال بعد أجيال الى أن يرث الله الأرض ومن عليها ..

******

أى تجربة تلك التى صنعت من سالم مولى أبى حذيفة .. الذى لا يعرف أحد اسم أبيه ، ولا هو نفسه صنعت منه إماماً للمسلمين المهاجرين من مكة إلى المدينة طوال صلاتهم فى مسجد قباء وفيهم من فيهم من الأشراف والأغنياء ؟ هذا الذى كان عبداً ذات يوم عند أبى حذيفة فيسلمان معاً ويعتقه أبو حذيفة ثم يزوجه بنت أخيه فاطمة بنت الوليد بن عتبة .
بل ويتحول الى مصدر فخر للرسول صلى الله عليه وسلم ، وفخر بالتالى لكل مسلم الى يـوم القيامة أن يكون من نفس الأمة التى منها سالم مولى أبى حذيفة الذى لا يعرف أحداً اسم أبيه فيقول عنه الرسول صلى الله عليه وسلم " الحمد لله الذى جعل فى أمتى مثلك " .
هذا الذى كان عبداً يوماً فى مكة ، وكان فيها خالد بن الوليد سيداً ابن سيد هو نفسه الذى يقف أمامه خالد بن الوليد متهماً يسمع قائمة أخطائه من سالم أثناء الخروج معه فى سرية توجهت الى بعض القبائل العربية بالقرب من مكة بعد الفتح وارتكب خالد فيها بعض الأخطاء ، وكـان قائداً لها فإذا بسالم يواجهه بتلك الأخطاء دون خجل أو حساسية .

******

أى تجربة فريدة تلك التى صنعت من صهيب الرومى ، الذى كان عبداً فى مكة ذات يوم، هـو نفسه الذى يوصى عمر بن الخطاب قبيل موته بعد طعنه بالخنجر على يد أبى لؤلؤة المجوسى، يوصى بأن يكون صهيباً هو من يؤم المسلمين فى الصلاة حتى يتم اختيار خليفة جديد ، ويظل صهيب يفعل ذلك ثلاثة أيام حتى تم اختيار عثمان بن عفان خليفة للمسلمين . بل ويوصى عمر بأن يكون صهيب مراقباً لأعمال الستة الذين أوكل إليهم أمر اختيار الخليفة من بينهم ، وبينهم أكبر زعماء المسلمين فى ذلك الوقت .

وهو الذى ينزل فيه الآية الكريمة " ومن الناس من يشرى نفسه ابتغـاء مرضـات الله ، والله رؤوف بالعباد " فيخلد ذكره إلى الأبد ، وهو الذى يباهى المسـلمين بأعمالـه دون خجـل أو حساسية قائلاً " لم يشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم مشهداً قط ، الا كنت حاضـره ولـم يبايع بيعة قط الا كنت حاضرها ، ولا غزا غزوة قط أول الزمان أو آخره ، الا كنت فيها عـن يمينه أو شماله ، وما خاف المسلمون – أمامهم قط الا كنت أمامهم ولا خافوا وراءهم إلا كنت وراءهم ، وما جعلت رسول الله صلى الله عليه وسلم بينى وبين العدو أبداً حتى لقى ربه " .

••••••

وأى تجربة متميزة تلك التى تجعل بلالاً العبد الحبشى الأسود هو الذى يؤذن للصلاة ، وهو شـرف كان يتمناه كل الصحافة الكبار والصغار ، بل وهو من يمسك به الرسول من ناحية ، وبأسامة بـن زيد بن حارثة من ناحية أخرى ويدخل بهما الكعبة يوم فتح مكة ، وكأنه صلى الله عليه وسلم يريد أن يؤكد تجربة الاسلام العظيمة فى صعود المستضعفين ، لأنه يوم النصر الأكبر لا يـدخل الكعبـة وعن يمينه عمر بن الخطاب أو أبو بكر الصديق ، أو خالد بن الوليد أو عثمان بن عفـان أو عبـد الرحمن بن عوف أو حتى العباس بن عبد المطلب بل يمسك ببلال العبد الحبشى الأسود الذى كـان يوماً عبداً عند أمية بن خلف من ناحية ، ومن الناحية الاخرى أسامة بن زيد بن حارثة أى ابن عبد آخر كان ذات يوم عبداً عند السيدة خديجة فوهبته لمحمد فأعتقه.

ولعل وجهاء مكة – وكل أهلها – قد فهموا هذا المعنى نفسه عندما أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بلالاً بالصعود فوق أعلى مكان فى الكعبة وأن يؤذن ، فوقف ثلاثة من زعمائها هم أبـو سفيان بن حرب – وكان قد أسلم منذ ساعات – وعتاب بن أسيد والحارث بن هشام وكانا لـم يسلما بعد يتحدثون فيقول عتاب بن أسيد وعينه على بلال وهو يرفع الآذان ويعلـن انتصـار الحق .. لقد أكرم الله أسيدا الا يكون حضرهذا فيسمع منه ما يغيظه .. وهكذا من عبد فـى مكة الى صاحب اعلان نهاية الكفر فيها وشروق فجر جديد .. ويا له من شرف عظيم ! بلال بن رباح من عبد فى مكة الى رجل يفخر به كل مسلم بل وأشهر من عُرف بين أجيال المسلمين ، بل وتقوم باسمه حركات ومؤسسات ، بل ويندر أن تقابل مسلماً عربياً أو أعجمياً ، أفريقياً أو آسيوياً ، أوروبياً أو أمريكياً .. ولا يعرف بلالاً .. سواء كان هذا المسلم رجلاً كبيراً أو طفلاً صغيراً ، من الخواص أو من العوام .

••••••

هذه التجربة المنقطعة النظير – هى التى تصنع بن زيد بن حارثة هذا العبد لدى السيدة خديجة فــى مكة التى تهديه لزوجها محمد صلى الله عليه وسلم فيحرره ويتبناه الى أن ينزل قرآناً ينهى عــادة التبنى ، هذا العبد ينزل فيه قرآن من فوق سبع سموات ٠٠ ويصـــبح هــو نفســه قائــداً لجــيش المسلمين بما فيه من كبار الصحابة ووجهاء القوم – فى غزوة مؤتة ، ومن قبلها كان هــو قائــد أكثر من سرية وأميراً للقوات الزاحفة الى معارك الجموح،والطرف ،والفيصل ، وحسمى وغيرها ٠ هذا العبد القصير الأسمر ، أفطس الأنف هو نفسه " الذى لا يرسله الرسول صلى الله عليــه وســلم فى جيش إلا أمره عليه ولو بقى حياً بعد الرسول لاستخلفه " كما تقول السيدة عائشة ٠ مــن عبــد إلى أمير ، بل ولو عاش بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم لأوصى الرسول صلى الله عليه وسلم به ليكون خليفة للمسلمين ٠

••••••

بل وابنه أسامة بن زيد بن حارثة ، التى كانت أمه أيضاً من العبيد " أم أيمن " وهــو أيضــاً الأســود الأفطس الأنف مثل أبيه ، هو وبلال من يدخلان بصحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الكعبة يوم الفتح ٠

وهو الذى يجعله الرسول صلى الله عليه وسلم أميراً لجيش أسامة أى لذلك الجيش الذى حمــل اســمه حتى اليوم ، هذا الجيش الذى كان فيه عمر وأبو بكر وغيرهما من كبار الصحابة جنوداً تحــت إمــرة القائد أسامة بن زيد الذى لم يكن قد تجاوز العشرين من عمره فى ذلك الوقت ٠

••••••

هذه التجربة التى لا تستطيع الكلمات وصفها بما تستحق ، هى من تجعل من خباب بن الأرت عبــد أم أنمار ، ذلك الحداد الذى كان يصنع السيوف فى مكة هو من يعلم اخوانه المسلمين الأوائل آيات القرآن ، وهو الذى كان يعلم فاطمة بن الخطاب وزوجها سعيد بن زيد القرآن عندما داهمهم عمر بن الخطاب فى القصة المعروفة لإسلام عمر ٠

••••••

ومن خلف تلك الممارسة الفذة ٠٠ كان النص قرآناً وسنة يؤكد هذه التجربة بل يصفها بقوله تعــالى " ان أكرمكم عند الله اتقاكم " ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم " ليس لعربى فضل على أعجمــى إلا بالتقوى " ٠ويقول " ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل إلا بالتقوى " ويقول : " كلكم لآدم وآدم من تراب " ٠ ومن خلف النص والممارسة كان المنهج الاسلامى بشموله وروعته مهيمناً " ٠

المنهج الحركى من خلال تجربتى
النبى عيسى بن مريم والنبى يحيى بن زكريا عليهما السلام

لاشك أن سيرة الأنبياء والرسل تمثل ذخيرة حية ونابضة ومفعمة بالتجارب لكل حركة دعوة أو إصلاح أو تغيير منشود ، وهكذا لم يكن حرص القرآن الكريم على إثبات وتحليل هذه التجارب وغيرها الا دعوة للتأمل فى تلك التجارب بهدف الاستفادة منها ، والتأمل كذلك فى الأمراض والأعراض التى تلحق بالأمم والجماعات فتقودها الى طريق الهلاك حتى نتجنبها .

ولاشك أيضاً أن المساحة الواسعة فى القرآن الكريم التى تناولت بنى إسرائيل – من حيث فسادهم الدينى والأخلاقى – ومن حيث تجارب الأنبياء معهم ، وبهم مع غيرهم من الأمم ، لم تكن عبثاً ، ذلك انها مقصودة بالطبع لأن من الممكن ان تلحق بنا كأمة إسلامية ورثت الكتاب والنبوة والرسالة ، وورثت دور الشاهد على الناس الى يوم القيامة ، يمكن أن تلحق بنا هذه الأمراض ، وبالتالى فيجب معرفتها لتجنبها وكذا بالنسبة لطليعة الأمة " علماء أمتى كأنبياء بنى إسرائيل " أن يفهموا مسيرة الأنبياء للاستفادة منها فى مجال الدعوة والإصلاح والتغيير .

ولاشك كذلك ، فى أن للتجارب خصوصيتها زماناً ومكاناً ، وأنه من غير الصحيح التقليد الهندسى للتجارب السابقة ، ولكن الاستفادة منها كمنهج متكامل تتغير طريقة تركيبه على الواقع فى كل مرحلة ، ومهما كانت درجة التشابه بين حالة نمر بها وبين تجربة سابقة لأمة أو نبى فإن من الضرورى إدراك استحالة الانطباق الهندسى بين حالتين – مهما بلغت درجة التشابه – لا يمنع بالطبع من الاستفادة من تلك التجارب ، بل يؤكد على ضرورة هذه الاستفادة مع إدراك أهمية الإبداع والتجديد فى الفهم والممارسة ومواجهة المستجدات .

وتمثل حياة الأنبياء وأحوال الأمم التى ظهروا فيها كل أنواع وأشكال طرق الاصلاح الدينى والاجتماعى والأخلاقى والسياسى والاقتصادى .. وكذا تمثل أوضاع الأمم التى ظهروا فيها مختلف أنواع الفساد والأعراف والزيغ والأمراض الاجتماعية والدينية والأخلاقية والسياسية والاقتصادية .

فهناك من الأنبياء من بدأ مع مجتمع مسلم ، أى كان المطلوب فقط المحافظة على حالته الصحيحة ثم حدث انحراف فى فرد أو أفراد مثل آدم وأولاده الأوائل .. وهناك من واجه

مجتمعاً كافراً أخذ يدعوه دون جدوى – اللهم الا القليل الذى آمن معه مثل نوح وغيره – عليهم الاسلام – ومنهم من واجه الى جانب الكفر انحرافاً أخلاقياً مثل لوط ، ومنهم من بدأ تأسيس أمة – تكون شاهدة على الناس – مثل ابراهيم ، ومنهم من واجه الى جانب الكفر الظلم الاقتصادى مثل شعيب ، ومنهم من واجه أمة لديها الدين الصحيح والرسالة والكتاب ولكنهم انحرفوا قليلاً أو كثيراً أو واجهت عدوا يريد البطش بها مثل أنبياء بنى إسرائيل أيضاً – داوود مثلاً . ومنهم من وجد نفسه فى مجتمع لا ينتسب اليه ، وكان مطلوباً منه أن يعايشه ويصلحه من داخله فاستخدم أساليب شتى ووصل الى وظائف عليا فى ذلك المجتمع دون أن يتخلى عن رسالته مثل يوسف ، الذى تصلح تجربته نموذجاً للمسلم الذى يعيش فى إحدى الدول الأوروبية مثلاً فى هذا العصر – مع الفوارق طبعاً ، من الرسل من انتصر ومنهم من انهزم ، ومنهم من مات ومن قتل ، وهكذا يتشكل لنا فى النهاية أوسع تجربة نستفيد بها فى كل حالة وأى حالة .

ومن الرسل من كان مثل محمد – صلى الله عليه وسلم – الذى أكمل الله به الدين ونقل إليه والى أمته من بعده – بعد أن فقدت بنى اسرائيل مقومات استمرارها بسبب فسادها وعنادها – نقل اليه والى أمنه من بعده واجب الرسالة الى الناس جميعاً ، " لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول شهيداً عليكم " وبالطبع فإن العقيدة الصحيحة والمنهج الصحيح والاسلام الكامل شريعة وعقيدة وممارسة تم على يد محمد صلى الله عليه وسلم لأنه خاتم الرسل ، والاستفادة من تجربة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم واجب بالطبع ، خاصة أنها تجربة ممتدة من دعوة للكافرين ، إلى إقامة مجتمع للمسلمين فى المدينة مع وجود أقليات تعايش معها فى البداية مثل المشركين واليهود فى المدينة ، الى الصراعات بين دولة الرسول والقوى المشركة فى الجزيرة العربية ، انها تجربة تجمع بين تجارب دعوة الكافرين الى تجارب اقامة مجتمع للمسلمين ، الى تجارب مواجهة المنافقين ، الى تجارب معايشة المشركين واليهود – وثيقة المدينة نظمت تلك العلاقات – الى تجارب صراع الدولة المسلمة مع غيرها من القوى .. الخ.

وهناك تجارب الرجال الصالحين ، مثل الخضر عليه السلام ، الذى خرق السفينة ليبيعها – فعلمنا أن نخفى علامات قوتنا عن أعين الظالمين ولعل هذه التجربة لازمة لنا فى أحوالنا المعاصرة ، حيث كلما ظهرت قوة حركات الاصلاح وحدث نوعاً من استعراض هذه القوة فى نقابة أو انتخابات أو موقع اجتماعى أو خدمى كان هذا دعوة للظالمين للبطش بها وتصفيتها ومصادرتها .

****

وسوف نختار فى هذه الدراسة ، تجربة هى أقرب التجارب شبها بنا – دون إغفال المتغيرات الطبيعية بالضرورة ، وهى تجربة دعوة المسيح عيسى بن مريم عليه السلام فى بنى إسرائيل وكذا تجربة نبى معاصر له هو النبى يحيى عليه السلام .

وأوجه الشبه كبيرة جداً بين حالتنا المعاصرة وحالة نبى الله عيسى بن مريم فى بنى إسرائيل. أو قل هى أكثر التجارب شبهاً لأحوالنا المعاصرة .. فوجب الاهتمام بها ودراستها والاستفادة منها .

وأول أوجه الشبه تلك هى أن نبى الله عيسى جاء الى بنى إسرائيل لإصلاحها من داخلها ولم يكن صاحب دعوة الى غيرها من الأمم أساساً وهو لم يأت لنقض شريعة موسى ، أو تغيير دين اليهود ، بل جاء ليكمل النا موس ويؤكد على المعانى الصحيحة والفهم الصحيح والممارسة الصحيحة .

يقول المسيح عن نفسه فى الاصحاح الخامس " لا تظنوا أننى جئت لانقض الناموس أو الأنبياء ، ما جئت لا نقض بل لأكمل .. " وقوله " على كرسى موسى جلس الكتبة والفريسيون ، فكل ما قالوا لكم أن تحفظوه فاحفظوه وأفعلوه ، ولكن حسب أعمالهم لا تعملوا لأنهم يقولون ولا يفعلون " .

أى أنه يقر النص والوصايا والمرجعية النظرية .. ولكنه جاء لإعادة روح الممارسة وروح الفهم الصحيح للنص والمرجعية والمنهج ، وكونه فقط مرسلاً لإصلاح بنى إسرائيل مثل قوله " إلى طريق أمم لا تمضوا الى مدينة السامريين لا تدخلوا ، بل اذهبوا بالحرى الى خراف بيت إسرائيل الضآلة " الاصحاح العاشر . وقوله " لم أرسل الا الى خراف بيت إسرائيل الضالة " الاصحاح الخامس عشر .

نحن إذن أمام أمة مكلفة برسالة .. ولم تفقد مرجعيتها النظرية مثل حالتنا الآن ، ولكنها افتقدت روح المنهج والفهم والممارسة ، وفقدت الكثير من الشروط التى تكفل لها الاستمرار على هذه المهمة ، فكان المطلوب استعادة المضامين والشروط وروح المنهج والممارسة لدى هذه الأمة حتى لا تفقد مبررات وشروط استمرارها كأمة رسالية ، وهذا هو مطلوب منا الآن وعلى علمائنا – الذين هم كأنبياء بنى إسرائيل – القيام به .

ولاشك أن الرسالة لا تورث بالجنسية أو العصبية أو القومية بل بامتلاك شروط معينة العمل شكلاً ومضموناً بمقتضاها ، وإذا كانت بنى إسرائيل قد فقدت هذا الشرف بعد أن فقدت شروطه وآل الأمر إلى أمة الاسلام فنرجو ألا نفتقده بدورنا لافتقادنا شروطه !

****

ومن أوجه التشابه أيضاً ٠٠ وجود الظروف الموضوعية والذاتية شديدة التشابه بيننا وبين تلك التجربة ، فالأمة اليهودية فى ذلك الوقت كانت أمة محكومة بالأجانب ٠٠ أى خاضعة لسيادة خارجية هى الدولة الرومانية ٠٠ ونحن بدورنا خاضعون للنفوذ الغربى ، والدولة الرومانية فى ذلك العصر كانت قد بلغت أوج قوتها ودخل فى حوزتها العالم المعمور كله ما عدا الشرق الأقصى ، مثل أمريكا الآن التى تهيمن على العالم فيما يعرف بعصر القطب الواحد أو النظام العالمى الجديد ٠

وكانت الفلسفات والأفكار ذات طابع عالمى وكذلك العقائد والمذاهب بمعنى أن الحياة الفكرية من الهند إلى الأطلسى مروراً بالاسكندرية ونابلس وروما كانت شديدة الترابط والاتصال ٠ وهذا هو حالنا الآن مع إدراك الفارق الكمى – وليس النوعى – فى سرعة الاتصال حالياً ٠ بل حتى قبل ظهور المسيح بقليل ، إبان الصراع بين الفرس والروم ، الذى يشبه الصراع بين الاتحاد السوفيتى وأمريكا ، والذى انتهى أيامها لصالح الرومان وانتهى حالياً لصالح أمريكا، ويمكن أيضاً ان نشبهه بالصراع بين أمريكا وأوروبا أو أمريكا وفرنسا ، أو أمريكا والصين ٠٠ الخ ، كان هذا الصراع يجد له أنصاراً داخل أمة اليهود ، فهناك من ينحاز الى الرومان وهناك من ينحاز الى الفرس !! مثل حالتنا بالضبط ٠

إذن فهناك أشياع وأتباع سياسيون لهذه القوة أو تلك داخل أمة اليهود فى ذلك الوقت ، وكذلك هناك الكثيرون ممن تأثروا بالفلسفات المختلفة ، من خارج إطار أمة اليهود – فهناك من تأثر بالفلسفة الفيثاغورثية أو الفلسفة الأبيقورية أو الفلسفة الرواقية ، كحالتنا فى التأثر بالمذاهب السياسية أو الفلسفية المختلفة من رأسمالية واشتراكية ديمقراطية ، وماركسية أو من تأثر بالبراجماتية ، أو المادية المثالية ، أو الوصفية المنطقية ، أو البنائية أو فلسفة الحداثة وما بعد الحداثة ٠٠ الخ ٠

وبالطبع انتشرت بين اليهود خاصة الطبقة الارستقراطية المرتبطة بالنفوذ الرومانى ، أنماط وأذواق الملبس والمأكل والآداب الرومانية وطرق الحياة والثقافة والألعاب وغيرها ، وهكذا فنحن أمام حالة أمة خاضعة لنفوذ سياسى وعسكرى أجنبى ، مخترقة ثقافية مستلبة حضارياً تجاه الأجنبى ، أليست هذه هي حالتنا بالضبط ؟!

•••••••

وحتى على المستوى العام اقليمياً وعالمياً ، فإن الحالة كانت شبيهة بما نعيشـه الآن ، فقـد كـان معظم العالم المعروف فى ذلك الوقت خاضعاً سياسياً وعسكرياً ومنهوباً اقتصادياً للدولة الرومانية ، وكان هناك سوء توزيع مروع للثروة ، فكان هناك ثروة وترف وطغيان من ناحية وفقـر وضـنك وهوان من ناحية أخرى ، كان هناك بذخ وترف ولهو من جانب السادة ، ونقمة من جانـب العبيـد والمسخرين ويصف المسيح نفسه أحوال العالم فى تلك الفترة ، التى ضاعت فيها المعـايير والقـيم والعدالة والحرية وتسلط فيها السادة الرومان على الناس بقوله " إن للثعالب جحور وللطيور أوكاراً ، أما ابن الانسان فليس له شيء يسند رأسه " ، أليس هذا هو حال عالمنا المعاصر بالضبط الـذى تستبد به القوى الكبرى وتنهبه ، وبحيث ضاعت فيه الحقوق تماماً وظهـر فيـه ازدواج المعـايير بحيث لم يعد لابن الانسان قوة تسنده ، أليس الفقر والجوع والموت والحروب الأهلية وغيرها ممـا نعيشه الآن تحت ظل الهيمنة الأمريكية ، هو نفسه ما كان يحدث فى العالم أيام المسيح .

وفى فلسطين ذاتها ، ألا تخبرنا الأناجيل ، عن آلاف الجوعى والمرضى والعجزة والمجانين والصـم والعمى والخرس الذين جاءوا للمسيح طلباً للشفاء .. الا يدل هذا على الحالـة المترديـة للنـاس أيامها مثل الصور التي نراها حالياً للجوعي يتدافعون للحصول على شيء مـن معونـات الأمـم المتحدة !!

بل حتى على مستوى تمزيق الدول وإثارة الحروب الطائفية والعرقية والصراعات بين الكيانات السياسية المختلفة كان الأمر متشابهاً ففى فلسطين مثلاً كانت هناك ثلاث دويـلات متصـارعة فيما بينها ، ويعلق العقاد فى كتابه " حياة المسيح " على ذلك قائلاً فى صـ٤٤ "وقصدت روما بهذا التمزيق أن تخيف كل ولاية وتلجئهم الى التنافس بينهم فى مرضاتها وتتخذهم جميعاً درعا تدفع به غارات الصحراء وهياج المتعصبين " .

****

وبالإضافة الى تلك الحالة المماثلة لنا اقليمياً ودولياً ، فإنه مـن ناحيـة الفسـاد والانحـراف والأمراض الاجتماعية التى تفشت فى اليهود فى ذلك الوقت من حب للجدل بلا طائل ، والتمسك بالشكل على حساب الجوهر ، واستخدام بعض رجال الدين لتبرير تصرفات الحاكم الأجنبـى ، وإعطاء غطاء شرعى لكل الممارسات الفاسدة أخلاقياً واقتصادياً والتخلى عن شـروط الأمـة المختارة ، فإننا نتشابه فى ذلك معهم فى كثير من الأمور ، ويصف المسيح هذه الحالة بقوله " إنهم حولوا الهيكل من مكان صلاة وطهارة الى مغارة لصوص " .

•••••••

إذن فنحن أمام تجربة ، هى أقرب التجارب الى حالتنا الراهنة ، من حيث التشابه فى وجود أمة منوط بها رسالة فقدت شروط رسالتها وضربت فيها الأمراض والانحرافات ، والى خضوع هذه الأمة للنفوذ الأجنبى ، وإلى وجود أحوال إقليمية وعالمية متشابهة ، وبالطبع فإن التشـابه لا يصل الى حد الانطباق الهندسى من ناحية ، فهناك فروق وملاحظات يجب إدراكها وكذلك مـن البديهى ان الاستفادة من كل التجارب النبوية وغير النبوية وارد بالطبع ، ومـن الملاحظـات والفروق مثلاً:

- ان فساد وانحراف بنى إسرائيل وصل الى حد كبير بحيث تعدوا شروط الأمة المختارة ، وهـذا لا يمنع بالطبع وجود عدو قليل منهم كان لايزال يتمسك بفكر وممارسة بالدين الصحيح ويدل على هذا قول القرآن الكريم " ثم توليتم إلا قليلاً منكم " وقوله " بل لعنهم الله بكفرهم فقلـيلاً مـا يؤمنـون " فهناك داخل أمة اليهود المنحرفة – فى تيارها العام والرئيسى – الصالحون من أمثـال آل عمـران وعيسى نفسه ، ولكن هؤلاء الصاحلين ليسوا إلا قلة تؤكد القاعدة ، أما حالتنا الاسـلامية الراهنـة فنرى أن هناك انحرافات كبيرة ، إلا أن المجرى الرئيسى لايزال صحيحاً وليس قلة من الأفراد فقـط ، وهذا معناه أن فقدان بنى إسرائيل لصفة الأمة المختارة لفقدانها شروطها ، لم يحدث لنا – ونسأل الله ألا يحدث لنا فمازلنا – رغم الانحرافات والأمراض الخطيرة ٠

نحمل فى التوجه العام الشروط أو معظمها التى تؤهلنا لصفة الشاهد علـى النـاس والقيـام بواجبات الأمة المختارة ورسالتها ، ويجب ألا تخدعنا هذه الحقيقة أيضاً عن ضرورة المسارعة فى الاصلاح ٠

- أنه كان فى بنى إسرائيل جماعات فكرية وعقيدية مثل الصدوقيين والفريسيين والسـامريين وخليط من اليهود والآشوريين والغلاة وغيرهم وبالطبع كانت هذه الجماعات أو الطوائف تحمل أفكاراً فيها الصحيح و الخاطىء ، وكذلك لدينا الآن أمثال هذه الطوائف والجماعات ، وبالطبع ليس هنا مجال تقييم أو دراسة هذه أو تلك بل يهمنا دراسة الظاهرة فى مجراها الرئيسى ٠

- أنه فى حالة أمة اليهود ، فإنها كانت محدودة من حيث العدد ، والاتساع الجغرافى ، فى حين أن الأمة الإسلامية كثيرة العدد الآن " حوالى ١٥٠٠ مليون نسمة " وممتدة من طنجـة حتـى جاكرتا ومن سراييفوا حتى جنوب أفريقيا ، بل وموجود فى كل مكان على وجه الأرض ، وهذا فارق نوعى مهم ينبغى أخذه فى الاعتبار ٠

******

لدينا فى عصر النبى عيسى بن مريم تجارب هامة فى مواجهة هذا كله ينبغى دراستها والاستفادة منها ، لأنه كرسول مبلغ عن الله تعالى استخدم أسلوباً مشروعاً يمكن القياس عليه من ناحية ويمكن فهمه مجملاً كمنهج ربانى فى مواجهة مثل هذه الحالة التى واجهها أو شبيها بها أو الاستفادة من جزئيات هذه التجارب وملامحها التفصيلية .

ولكن قبل البدء فى الاقتراب من تجربة وخطاب وأسلوب نبى الله عيسى بن مريم ، لدينا تجربة معاصرة لها ، أى أنها واجهت نفس الظروف .. أنها تجربة يوحنا المعمدان أو النبى يحيى عليه السلام ، وهو ابنة خالة المسيح وفى نفس سنه تقريباً وعاش فى نفس الفترة وواجه نفس الأوضاع والقوى ، ركز يحيى عليه السلام على جانب الحب .. حب الانسان أى إنسان تقياً أو عاصياً صالحاً أو طالحاً ، حتى ولو كان يملأ الأرض بذنوبه وضعفه الانسانى ، ولكنه كان يرفض مسايرة الظلم ، أى ظلم من أى نوع ، كان يحيى شديد الحنان بوالديه وبالناس والمخلوقات والطيور والحيوانات والأشجار ، أى أنه استخدم الأسلوب " الانسانى " فى دعوته ، وهذه الجوانب الانسانية – للأسف غائبة فى الحركة الاسلامية المعاصرة وبخاصة المتشددين المشهورين بالقسوة الشديدة !! ظناً منهم أن هذا تمسك بالشريعة ، والصحيح انه على العكس تماماً ، لأن يحيى كان من أكثر الأنبياء والرسل تمسكاً بالشريعة وبالكتاب والله تعالى يقول عنه " يا يحيى خذ الكتاب بقوة " ، ولكن أهم ما نتعلمه من يحيى هو أنه كان رقيق الحاشية " وحنانا من لدنا " ، كان يخاطب الجانب الانسانى فى الناس ، كان إذا تكلم أبكى الناس من الحب والخشوع وأثر فى قلوبهم قبل عقولهم وهذا بالطبع كان لازماً لمواجهة المادية التى طغت على كل شىء ، والقسوة التى صبغت كل شىء فى ذلك الوقت .

أما موقفه من المؤسسة الحاكمة ، أى من الحاكم التابع للدولة الرومانية فهو موقف تعليمى لكل داعية ، لم يكن هذا الحاكم – كأى حاكم – مجرد فرد حاكم طاغية بل هو ممثل لمؤسسة الفساد ، الفساد الاقتصادى والسياسى والأخلاقى .. وبديهى أن الفساد الأخلاقى هو نتيجة طبيعية للفساد السياسى والاقتصادى ، كان هذا الحاكم يريد أن يتزوج ابنة أخته ، وهو محرم فى الشريعة بالطبع وكان هذا السلوك وتلك الرغبة تعبير عن فساد أخلاقى طال كل شىء ، كان تعبير كامل عن فساد المؤسسة الحاكمة سياسياً واقتصادياً وأخلاقياً ، وطلب هذا الحاكم من النبى يحيى أن يبحث له فى الشريعة عن طريقة تحل له هذا الزواج ، أنه يريد أن يأخذ غطاء شرعياً لممارسات المؤسسة ،

مؤسسة الفساد ولكن نبى الله يحيى رفض بالطبع ، ليس رغبة فى الصدام ، فلم يكن ينتهج أسلوب الصدام ، ولكنه رفض أن يتحول الى غطاء شرعى لممارسات مؤسسة الفساد ، وهذا يعنى أن إعطاء مؤسسة الفساد الاقتصادى والسياسى والأخلاقى شرعية من أى نوع أو أن نصبح جزءاً من هذه المؤسسة بطريقة أو أخرى أمر مرفوض تماماً ، وهكذا كان رفض النبى يحيى ، الذى دفع ثمنه غالياً ولكنه كان راضياً بهذا الثمن ،كان هذا الثمن هو قتل النبى يحيى وتقديم رأسه الشريف على طبق لتلك العشيقة الماجنة !

****

تجربة المسيح عيسى بن مريم فى مواجهة الظرف الذاتى والموضوعى الذى واجهه تجربة ثرية بلاشك ، وهى أقرب التجارب شبهاً لما تعايشه الآن كما قلنا من قبل ..

فالمسيح كان وديعاً متواضعاً رحيماً بالخاطئين والعاثرين متجرداً من أواصر المنافع والشهوات ، أى غير مرتبط بالمؤسسة الحاكمة ولا بحلفائها ، يوجه خطابه للجماهير الفقيرة والمطحونة والمريضة والعاجزة والبؤساء من كل نوع ، والمستضعفون هم الحلفاء الطبيعيون لأية دعوة تغيير أو إصلاح لأنهم ليس لهم مصلحة من استمرار الأوضاع التى ظلمتهم وهمشتهم ، لم يوجه المسيح خطابه للمؤسسة الحاكمة ، بل الى الجماهير ، لم يأت بجديد فى الشريعة ، بل أكد على الشريعة الموسوية وناضل ضد فهمها النفعى " البراجماتى " والتجارة بها أو الجمود على شكلها الخارجى فقط ، وهذا يعنينا بالطبع فيجب أن نتوجه الى الجماهير أيضاً ، ويجب ألا نكون جزءاً من مؤسسة الفساد شكلاً ومضموناً ، ويجب أن ننحاز الى الفقراء والمستضعفين وأن نوجه خطابنا لجميع هؤلاء ، ونحن أيضاً لسنا ديناً جديداً ، ولا نأتى بنص جديد أو حتى فهم جديد للشرائع والعقائد المستقرة ، بل ممارسة جديدة ، والدخول الى روح النص ، كما فعل المسيح عليه السلام ، ونكرر لسنا ديناً جديداً ، ولا فرقة دينية جديدة ، بل محاولة للنهوض وإصلاح الأمة والقضاء على أمراضها الاجتماعية والتصدى لمؤسسة الفساد وإعادة صياغة الانسان روحياً فى مواجهة المادية الطاغية والتأكيد على المرجعية الربانية بدلاً من مرجعية المادة والحوسلة والحداثة وما بعد الحداثة !!

كان المسيح يدرك أنه عندما يخلص الجماهير من العبودية للمادية وهى اله ذلك العصر ، وإله عصرنا أيضاً فإنه كان يضرب مؤسسة الفساد فى مقتل ، كان يدرك حين ينحاز الى الفقراء والمستضعفين انه يشعل الثورة على مؤسسة الفساد ، يقول المسيح " جئت لألقى على الأرض ناراً فحبذا لو تضطرم " ويقول لتلاميذه " اتحسبوننى أتيت لأمنح الأرض سلاماً .. كلا وانما هو الصدام والانقسام " .

كان المسيح حين يدعو إلى خلاص الضمير ونقاء الروح ، يدعو بالضـرورة الـى مقاطعـة مؤسسة الفساد وإلهها المادى ، بل يدعو للثورة عليها أو على الأقل رفـض الخضـوع لهـا وخدمتها ٠

واجه المسيح تحجر الأشكال والأوضاع فى الدين والاجتماع ، وتحجر نظام المجتمع الذى أصبح أشكالاً ومراسم خلت من المعانى والغاية بل وتحجر الشرائع والقوانين ، وأن التقوى أصـبحت اجترارٌ النصوص والبحث عن مراسم الشريعة ، وغلبة المظهـر ، وانتشـر الخـلاف علـى النصوص والحروف والتأويل والتحليل ٠

كان النبى عيسى مثل النبى يحيى يحب البسطاء والخاطئين وكان أعداؤه يعيبون عليـه ذلـك فقالوا عنه " أنه محب للعشارين والخطاة " وكان يوحنا المعمدان " النبى يحيى " يقول لهم "يـا أولاد الأفاعى لا يهجس بأخلادكم أنكم تنتسبون الى ابراهيم انى أقول لكم ان الله قادر علـى أن يخرج من هذه الحجارة أبناء لابراهيم " ٠

ويعلق الأستاذ عباس محمود العقاد على ذلك قائلاً فى كتابه " حياة المسيح " أن يذكر اسم الله ويرشهم بالماء ويمسح على رؤوسهم فهم بعد ذلك أهل للدخول فى زمـرة التـائبين وطـلاب الخلاص ولو لم يكن لهم نسب فى آل يعقوب وابراهيم " ٠

ولأن دعوة المسيح ويوحنا المعمدان اتجهت إلـى الجمـاهير ، ورفضـت المؤسسـة الحاكمـة أو المتحالفين معها ، فقد تنكر لها الكهان والفقهاء ومحترفو الدين ، وأحبها الجماهير ، فكان النـاس يحبون كل من المسيح ويوحنا المعمدان حباً جماً ، يقول العقاد فى نفس الكتاب صـ٩٦ " لم تذهب دعوة يوحنا سدى بين الدهماء وبقى اسم يوحنا مقدسا محبوباً لديهم لدرجة أن الأدعياء خـافوا ان يجترئوا عليه حتى لا ينقموا أغلبية الشعب " ٠

وبديهى أن الانحياز للفقراء والمرضى والمستضعفين والدهماء ورفض المؤسسة الفاسدة كان يعنى بالضرورة أن يمارس كل من المسيح ويوحنا المعمدان حياة الزهد والبساطة ، وأن يرفضا الانتفاع بأى شكل من أشكال الصلة بتلك المؤسسة بل أن يرفضا تقاليدها فى الترف والغنى ، فكان قوتهمـا من الجراد والعسل البرى ، ولا يعقل طبعاً أن يكون المناضلون ضـد المؤسسـة جـزءً منهـا أو يقبضون منها أول النهار ثم يلعنونها آخر النهار أو توجه دعوتهم للجماهير ثم يعيشون حياة الترف التى يعيشها مصاصو دماء الجماهير حتى ولو كان ذلك نتيجة عمل مشروع أو جهد مأجور – وهو أمر صعب أصلاً – ولكن حتى لو فرض إمكانية تحقيقه فإنه يفقد المناضل مصداقيته ٠

كانت المؤسسة تدرك خطر دعوة المسيح عليها وكذا من قبله دعوة يوحنا المعمدان ، وكان محترفو الدين كذلك والمرتبطون بالمؤسسة ، كل هؤلاء تآمروا لقتل المسيح وقتل النبى يحيى "يوحنا المعمدان" .

كانت المؤسسة هى سبب الفساد ورأسه ، أما المذنبون والخاطئون الصغار فهم ضحايا تلك المؤسسة قبل أن يكونوا مذنبين وخاطئين وعصاة ، كان المسيح يفهم هذا ويدركه ، ولذا فهم أن التطبيق الحرفى للشريعة ، فى ظل مؤسسة ظالمة مستبدة فاسدة هو أكبر الظلم وأكبر خروج على الشريعة ، ولذلك عندما جاءوا للمسيح وهو فى الهيكل بامرأة زانية وقالوا له ان شريعة موسى تقول ارجموا الزانية فما زاد على أن قال " من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر " .

كان الظرف لا يستدعى قاضياً أو حسيباً على الناس بل قلباً كبيراً يجذب اليه الضحايا والمظلومين ، ولذلك عندما طلب منه أحدهم أن يقسم الميراث بينه وبين أخيه قال له " من أقامني عليكم قاضياً أو حسيباً " .

كان المسيح يضع الفأس على رأس المؤسسة حين يلفت نظر الناس الى الدخول الى لب المسائل ، وليس قشرتها ، الى اليد التى تقف وراء القفاز وليس القفاز نفسه ، الى رأس الفساد وليس ضحاياه ، وكذلك حين ينادى الجماهير " طوبى للحزانى ، طوبى للمساكين ، طوبى للجياع والظماء ، طوبى للمطرودين فى سبيل البحر ، طوبى للودعاء والرحماء ، تعالوا الى يا جميع المتعبين والمثقلين"انه هنا لا يدعوهم الى الجوع بل الى الثورة على ناهبيهم وغاصبى قوتهم ومضطهديهم .
لم تكن الشريعة يوماً لاقتناص الناس واصطيادهم ، ولم تكن الشريعة يوماً معنى مجرداً عن الزمان والمكان والظروف ، ولم تكن الشريعة يوماً الا لاصلاح حال الانسان ولها غاياتها العليا دائماً وهكذا فإن المسيح عندما عالج المرضى يوم السبت وقال له محترفو الدين أن العمل يوم السبت محرم فى شريعة موسى قال لهم المسيح " خلق السبت للانسان ولم يخلق الانسان للسبت " ، وبعده عفى عمر بن الخطاب رضى الله عنه عن السارق ولم يقم عليه الحد، بل هدد بعقاب سيده الذى أجاعه فدفعه الى السرقة ، هكذا يفهم المخلصون وكبار العقول والقلوب الشريعة على حقيقتها .

على أن أهم ما نتعلمه من تجربة المسيح هو عدم الوقوف على كلماته بحروفها ، بل بمضامينها وغاياتها .

مشروع المقاومة

مع كثرة الحديث عن مشروعات الإصلاح ، وكثرة الأطروحات التى تناقش حالة التخلف والانحطاط العربى والإسلامى ، فإن من الضرورى علمياً وموضوعياً وشرعياً تحديد نقطة الانطلاق الصحيحة ومن ثم البرنامج الملائم للإقلاع من تلك الحالة التى تعانى منها أمتنا ،
إذا كان من الضرورى بداية لوضع تصور صحيح للإقلاع والاصلاح أن نحدد طبيعة الجماعة البشرية التى نحن بصدد تحديد أمراضها ومن ثم وضع الوصفة الصحيحة لعلاجها ، وكذا طبيعة التحدى والأمراض التى تواجهها تلك الجماعة البشرية ، أى الانطلاق من نقطة وبداية وهى أننا لا نتعامل مع جماعة بشرية مصمتة ليس لها سمات ولا خصائص ، وكذلك فنحن لا نتعامل مع مجموعة أحجار أو أشياء مادية تخضع فقط لقانون وسنن الفيزياء والكيمياء .. الخ، لكن علينا فى البداية تحديد من هى هذه الجماعة البشرية التى نحن بصددها ، وبدون الدخول فى تفصيلات كثيرة فنحن أمام جماعة بشرية ، العالم العربى والاسلامى ، لها تاريخ وحضارة وثقافة عميقة جداً – وبصرف النظر عن إيجابية أو سلبية تلك السمات الثقافية والحضارية لتلك الجماعة – فإن هذه الجماعة تتأثر بالضرورة بتلك السمات الثقافية والحضارية ومن ثم فإن تجاهلها يؤدى مباشرة الى الفشل بل تكريس الحالة التى نريد علاجها، هذه الأمة إذن أمة إسلامية شئنا أم أبينا ، وبالتالى فإن المكون الرئيسى والأساسى لوجدان وثقافة هذه الأمة هو الاسلام كدين وحضارة وثقافة بالنسبة للمسلمين " الأغلبية الساحقة " وكثقافة وحضارة بالنسبة لغير المسلمين داخل تلك الأمة ، وهكذا فإن شرط النجاح الأول لأى مشروع هو إسلاميته ونحن فى الحقيقة أمام أمة هى الأعمق ثقافياً وحضارياً – بلا استثناء – بالنسبة لكل الجماعات البشرية " ١٤ قرناً على الأقل " واتساع جغرافى وإمتداد زمانى ومكاني وتأييد واضح للإسلام لا تخطئه عين أى مراقب – وهكذا فإن وهم تغييب الاسلام والحضارة والثقافة الاسلامية ، بوعى أو بدون وعى – كرها أو رغبا هو قفزة فاشلة فى المجهول والفراغ ، ولن تحدث مطلقاً مهما فعلنا أو فعل غيرنا ، انها محاولة محكومة عليها بالفشل ونتيجتها الحتمية ضياع الوقت والجهد ومسخ ذلك الكيان جزئياً ومن ثم تعطيله عن التصدى الصحيح والكفء للتحديات والأمراض ، وهذا بالتحديد هو السبب الأساسى لفشل كل مشروعات النهضة على الأساس غير الاسلامى " العلمانى الليبرالى – العلمانى القومى ، العلمانى الاشتراكى بكل درجاته " والنتيجة هى ما نشاهده الآن من نتائج تلك المحاولات التى استقطعت من عمرنا

وجهدنا الكثير بلا طائل ، بل نتيجة عكس المطلوب تماماً ، الاسلامية إذن هى الشـرط الأولـى لأن مشروع للاصلاح ، ولكن العنوان لا يكفى فلابد من تحديد ما تحت العنوان وما بعد العنوان وإذا قلنا إن هذه الأمة غير قابلة للذوبان الحضارى لأنها الأعمق حضارياً وثقافياً ، فإن هذا يقود الى الايمان باستحالة هزيمتها هزيمة عسكرية وسياسية نهائية ، وإذا بدأنا من تحديد أسباب التراجع وقلنـا أن المنحنى الاسلامى صعد منذ البعثة المحمدية ثم ساد العالم ، ثم ثبت هذا المنحنى ، ثم نـزل وأننـا الآن ، فى حالة نزول حضارى – هزيمة تكنولوجية واضحة ، يجب الاعتراف بها أولاً ، ثم العمـل على تجاوزها ثانياً ، وإذا بحثنا عن سبب نزول هذا المنحنى – وقبل ذلك سبب صعوده ، لكان مـن الممكن تلخيص المسألة فى كلمة واحدة ، هى كلمة الجهاد ، فطالما قامت هـذه الأمـة بالجهـاد – كواجب شرعى وفعل حضارى لإنقاذ المستضعفين فى العالم – كلما صعد المنحنى الحضارى لأمتنـا وكلما تخلينا عن هذا الواجب وأبطلنا هذه الفريضة أو اكتفينا بالدفاع توقف صعود المنحنى ثم ثبـت ثم نزل ، ومن ثم فإن الصعود مرتبط باستعادة هذا الفعل ، وفى الحقيقة أن كثيراً من الأطروحات – بعضها إسلامى طبعاً – حين تتجاهل هذا البعد ، وتتحدث مثلاً عن التنمية الاقتصـادية ، الاصـلاح السياسى – التربية .. الخ فإنها تكرس التخلف ، لن نحقق الوحدة مثلاً، ولا الاصلاح الاقتصادى ، ولا الاصلاح السياسى الا اذا جاهدنا " والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا " " ما ترك قوم الجهـاد إلا ذلوا " وهكذا فإن الجهاد هو كلمة السر الصحيحة والوحيدة ، الجهاد هو شرط التقـدم الاقتصـادى والاجتماعى وشرط التنمية الحقيقية وشرط كل شيء صحيح وجميل فإذا أردنا أن نحقق زراعـة أو صناعة أو تعليم أو تربية أو حتى تفوقاً فنياً وأدبياً فإن الجهاد هو الشـرط الأول ، وهـذا المعنـى الصحيح للآية المذكورة سابقاً ، وللحديث الشـريف كـذلك يوجـب بـالطبع إدراك بعـد الهزيمـة التكنولوجية ، والاعتراف بها ويجب أن ندرك أن علينا فى البداية أن نقلل سرعة نـزول المنحنـى الحضارى لأمتنا ، وأن نوقف هذا النزول تماماً ، ثم نحدث انقلاباً فى المنحنى ثم نصعد من جديد إن شاء الله ، وبدون هذه المراحل فإننا نقفز فى الهواء – وهذا العامل كان خطأ الحركـات السياسـية الاصلاحية عموماً والاسلامية منها خصوصاً حتى الآن – يجب تقديم اجتهاد فكرى وحركى وفقهـى يلائم هذا الظرف ويحقق أقصى قدر من فريضة الجهاد .

سندخل مباشرة فى بعض الأطروحات المراوغة ، التى تقول إحداها مثلاً إننـا أمـة متخلفـة ومهزومة – وهذا صحيح – وأن المواجهة ليست حلاً وهذا غير صحيح ، ومن ثم فعلينا اتباع الأسلوب الألمانى أو اليابانى فى الاصلاح ، أى ترك موضوع المواجهة والجهاد نهائياً والتفرغ

للبناء والانتاج فى محاولة لسد الفجوة التكنولوجية ومن ثم الاقتصادية والسياسية والاجتماعية ، وهذا طرح خاطىء لعدة أسباب ، فالمعركة ضد الألمان واليابانيين لم تكن معركة حضارية ولا ثقافية بل عسكرية وسياسية ، أما نحن فالمعركة ضدنا بالإضافة الى كونها عسكرية وسياسية واقتصادية فإنها أيضاً حضارية وثقافية ، نحن لسنا فقط إزاء مشروع استعمارى اقتصادى وسياسى ، بل إزاء مشروع حضارى يستهدف القضاء على أمتنا ، وهناك وجدان صليبى يحرك الأعداء ضدنا ، والمواجهة مع الغرب الصليبى لم تنقطع قط فى الزمان ولا المكان بدءاً من حياة الرسول وحتى اليوم ، مروراً بالمواجهة فى الأندلس والمغرب العربى " حرب الألف عام كما يطلق عليها المؤرخون المغاربة " ومروراً بحروب الفرنجة على المشرق العربى الاسلامى (١٠٩٥ – ١٢٩٥م) ، وكذا مروراً بالمواجهات التى خاضتها الدولة العثمانية ، ثم الاستعمار والصهيونية وحتى احتلال أفغانستان والعراق ، فالمسألة هنا أننا أمام عدو لن يقبل بغير الاجتثاث لأمتنا ، ولن يتركنا نبنى ونعمر فهو لن يقبل لنا النهضة على الأساس الاسلامى أو حتى العلمانى أو على أى أساس ، ونحن أمة وسط ثقافياً وجغرافياً ولسنا جزراً منعزلة ، وبالتالى فالقياس الألمانى واليابانى قياس مخادع وخاطىء ، بالاضافة الى ان أمريكا والغرب كان لهم مصلحة فى تقدم ألمانيا الغربية فى اطار الصراع مع المنظومة الاشتراكية ، وكذا فى تقدم اليابان حتى لا ينفرد الاتحاد السوفيتى أو الصين بالتمدد فى آسيا وموضوع القياس اليابانى والألمانى خطأ مبدئى بالنظر لظروف ووضعية الصراع مع الغرب ، وهو أكثر خطأ بعد سقوط الاتحاد السوفيتى السابق والمنظومة الاشتراكية لأنه ليس هناك استقطاب يسمح بها مش من المناورة يمكن ان نفلت بها من موانع الغرب وعراقيله على نهضتنا وهكذا فإن القياس الألمانى واليابانى يحتم المواجهة والجهاد والمقاومة .

من الأطروحات الأخرى المراوغة ، أننا أمة لا قيمة لها وأن الدخل القومى الأمريكى مثلاً ١٣ تريليون دولار ، أما الدخل العربى والاسلامى السنوى فهو قليل جداً ، العربى ٧١٧ مليار دولار أى أصغر من رأسمال شركة مايكروسوفت مثلاً أو نوكيا للهواتف المحمولة أو دولة واحدة مثل أسبانيا ، وهذا صحيح ، ومن ثم فإن الغرب لا يضعنا فى اعتباره وليس طامعاً فينا أو لا نشكل له أى نوع من التهديد ، ولعل حجة هؤلاء هى نفسها تنسف منطقهم ، فمادمنا بلا قيمة ولا نشكل خطراً فلماذا تم زرع إسرائيل ؟ ولماذا تم احتلال أفغانستان ثم العراق ؟ هل لتدفق

البترول مثلاً ، وهذا البترول مهم طبعاً ، ولكن تدفقه كان مضموناً بدون مخاطر هذا الاحتلال على الأمريكان وحلفائهم ؟ بل ان أحد الزعماء العرب قال ذات يوم مستغرباً : انهم يأخذون البترول وحتى صدام حسين شخصياً كان مستعداً لأن يضخ لهم البترول ، إذن فالمسألة لها بعدها الحضارى والثقافى والتاريخى بالإضافة الى بعدها الاقتصادى والسياسى أما مسألة أننا لا نشكل خطراً عليهم ، فهذا كلام جزئى ، نعم ربما لا تشكل خطراً حقيقياً أو كبيراً الآن ولكن هناك ما يسمى بالقوة الكامنة ، والمنظومة الاسلامية الثقافية خطر شديد على المنظومة الغربية الرأسمالية لأنها تشكل البديل الايديولوجى لكل مستضعفى العالم للثورة على الرأسمالية بعد فشل الماركسية ولاهوت التحرير المسيحي ، وبديهى ان الماركسية ولاهوت التحرير المسيحى كان لابد أن يفشلا أمام الرأسمالية لأنه من الناحية العلمية والموضوعية فأن الماركسية ولاهوت التحرير المسيحى قد خرجا من نفس الأرضية الحضارية التى أفرزت الرأسمالية ومن الطبيعى أن هذا سبب جوهرى وبنيوى للفشل، أما الاسلام فهو منظومة ثقافية مختلفة أولاً – ليست نابعة من المنظومة الحضارية الغربية وهى ذات تراث ونصوص منحازة للفقراء ثانياً وبالتالى قادرة على تقديم التبرير النظرى للثورة على الرأسمالية ، وهى ذات خطاب عالمى ثالثاً وبالتالى فهى يمكن أن تصلح كأيديولوجية أو جذر ثقافى للبشر المستضعفين والمتضررين من الرأسمالية " وهم أكثرية العالم" سواء كانوا مسلمين أو غير مسلمين ، ثم ان الخطاب الاسلامى خطاب غير عنصرى ، أضف الى ذلك ان الرقعة الجغرافية المتوسطة وذات الاتساع الكبير التى يشغلها العالم الاسلامى وكثافته السكانية الكبيرة والواعدة ، ثم ثقافة القتال والجهاد ، والاعتماد على مدد الله يمكن ان يشكل مصدراً لا ينضب للمجاهدين والمناضلين ، وهكذا فإن خوف الغرب وأمريكا من الاسلام والمسلمين له أسباب القوية والخطيرة أيضاً ، وحديث المفكرين والسياسيين الغربيين عن الخطر الأخضر ليس وهماً ولا خداعاً ، بل إدراك مبكر أو تقليدى لما يمكن أن يمثله الاسلام والمسلمون إذا سادت ثقافة المواجهة والمقاومة وتم استعادة فعل الجهاد الجميل .

••••••••

لماذا نقول مشروع المقاومة ، ولا نقول مثلاً مشروع الاصلاح السياسى أو الاقتصادى أو التربية أو غيرها ؟! ذلك كما قلنا لأننا أمة لن تنهض ولن تتقدم إلا بالجهاد ، وذلك لأننا أمة

مستهدفة ، والسيف فوق رؤوسنا ، فهل نخدع أنفسنا مثلاً ، وقد بان الأمـــر الآن ، فأمريكـــا وبريطانيا والحلفاء جاءوا بجيوشهم ، والانطباق الكامل بين اسرائيل وأمريكا أصبح واضـــحاً للعيان لا تخطئه عين وخاصة بعد ما يسمى " بوعد بوش " الصادر مع شـــارون فـــى مـــؤتمر صحفى ٢٠٠٣/٤/١٤ ، وهو مفهوم من قبل ولكن ذلك لمن يريد حجة دامغة بدون جهد !!

وكذلك لأن الله تعالى وضع لنا الحل الصحيح فى القرآن الكريم " يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء ، بعضهم أولياء بعض ، ومن يتولهم منكم فإنه منهم ، فترى الذين فى قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة ، فعسى أن يأتى الله بـــالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا فى أنفسهم نادمين " ، وهذه الآيات تنطبق على حالتنـــا الراهنة تماماً ، حيث أنه لم يحدث تحالف – فضلاً عن موالاة – بين اليهود والنصارى الا فـــى السنوات الأخيرة – بل كان العداء بين الطرفين هو سيد الموقف دائماً لدرجة ظهور ما يســـمى بالمسألة اليهودية أو العداء للسامية فى الفكر الغربى واليهودى على حد ســـواء ، المهـــم أن هناك الآن – موالاة – والموالاة أعلى من التحالف بين الغرب وإسرائيل وهناك احتلال أمريكى لمناطق وبلاد عربية وإسلامية ومنطق الذين لا يريدون المقاومة ولا القتـــال ولا الجهـــاد ولا الاستشهاد " يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة أى نخاف منهم لأنهم أقوى منـــا بمراحل ، نعم هذا صحيح ، ولكن لنا أدواتنا ووسائلنا لخوض المواجهة ، بالمقاومة الشـــعبية التى أثبتت نجاحها فى فلسطين ولبنان والعراق وأفغانستان ، وبسلاح الاستشهاد الذى لم يجدوا له علاجاً ، ولن يجدوا إن شاء الله ، حتى الآن ، وحتى بصرف النظر عن النتائج فإن الله تعالى طلب منا ذلك وفضح منطق المسارعين فيهم ، وبشرنا بأن الفتح أو أمراً من عنده سوف يأتينا ، ونحن بالتالى نطرح المقاومة ومشروع المقاومة والمواجهة كحل صحيح وكفريضة شرعية ، وكتوجيه قرآنى ، وكذلك من الناحية العلمية والموضوعية فهو سلاح وطريقة وأسلوب أثبـــت نجاحه ، فالمقاومة العراقية أثبتت حتى الآن أنه رغم كل الظروف الصعبة وغير المواتية نجحت فى تعطيل المشروع الأمريكى ، وفى سبيلها لإنهائه إن شاء الله ، نفس الأمر بالنسبة لمشروع المقاومة فى فلسطين الذى جاء أيضاً فى ظروف غير مواتية ومع ذلك هز الوجود الإســـرائيلى هزاً ، وألقي بظلال من الشك حول المشروع الصهيونى ذاته كما اعترف بذلك قادة العدو وكبار مفكريه ، والأمر ذاته بالنسبة للمقاومة فى لبنان .

مشروع المقاومة إذن أثبت أنه يمتلك مقومات النجاح وإذا أدركنا أننا فى حالة هزيمة تكنولوجية وأن من المستحيل عملياً مواجهة آلة الحرب العسكرية والسياسية والاقتصادية الأمريكية والصهيونية بالجيوش أو الدول أو المؤسسات الرسمية ٠ وكل التجارب دلت على ذلك ٠ ، فإن التجارب ذاتها دلت على أن المقاومة الشعبية استطاعت أن تبرز وتأخذ مكانها، وهى سوف تحقق أولاً نوعاً من التصدى والصمود بمنع وصول المنحنى الحضارى الاسلامى الى نقطة السقوط النهائية ، والمقاومة سوف تزيد وعى الشعوب بالتحديات التى تحيط بها، وتوقظ هذه الشعوب وتعالج الأجزاء المريضة فى الجسد العربى والاسلامى ، وبالتالى يزداد هذا الجسد حيوية ، ولاشك أن ذلك سوف يزيد قدرة هذه الشعوب على انتزاع حقوقها السياسية، ومن هنا فإن مشروع المقاومة هو المقدمة الأولى والصحيحة والجوهرية للاصلاح السياسى ، وعلى نفس النمط هو المقدمة الأولى والصحيحة للتقدم الاقتصادى وإشاعة روح الوحدة والتكافل والحيوية والإيجابية ، بل سوف تنفجر طاقة الابتكار العلمى والتكنولوجى أيضاً ، وهكذا فإن مشروع المقاومة وإشاعة ثقافة المقاومة هو الأسلوب الصحيح شرعياً وواقعياً ، وفى أسوأ الحالات فإن التخلى عن الجهاد والمقاومة يعنى الإبادة والقتل والنهاية الحضارية وتحولنا الى عبيد أو قتل الجزء الأكبر منا وتحويلنا الباقى الى عبيد ، أما المقاومة فهى إما نصر وإما شهادة ، وحتى لو كانت النتيجة هى الهزيمة فإن خسائر الهزيمة لن تكون أسوأ من حالة الانبطاح ، وعلى الأقل هناك الكرامة ، وهناك التجربة التى يمكن تكرارها مع الأجيال القادمة ، أى المحافظة على الجذوة مشتعلة تحت الرماد ٠

****

ولن نكون مغرقين فى الوهم أو التفاؤل حين نقول أن مشروع المقاومة لن يحقق فقط العزة والكرامة لنا ، بل سيكون بداية لتحرير العالم كله من الهيمنة والظلم الامريكى الصهيونى ، وهذا سوف يرفع قيمة أطروحاتنا الثقافية عالمياً ، بل يمكن أن يتحول الاسلام الى أيديولوجية لكل المستضعفين والمناهضين للرأسمالية والعولمة ، وحتى بمنطق الدعوة المباشر فإن المواجهة والمقاومة ستكون طريقاً صحيحاً لدخول الناس فى دين الله أفواجا ٠

التكتيك النبوى فى مواجهة اليهود

لاشك أن دراسة سياسات الرسول - صلى الله عليه وسلم - تجاه اليهود فى الجزيرة العربيـة فى المرحلة المدنية بالتحديد تكشف الكثير من المعطيات الضرورية لفهم مبادىء الاسلام العليا من ناحية ، وتكشف أيضاً عن جوانب من الأسلوب الصحيح لمواجهة اليهود عموماً ، وهو أمر لازم لنا فى اطار الصراع مع العدو الصهيونى الذى يمثل أكبر التحديات فى تاريخنا المعاصر ٠
ولكى نقف على طبيعة التكتيك النبوى تجاه اليهود فى تلك الحقبة ينبغى بالطبع أن نعرف شيئاً عن طبيعة الوجود اليهودى فى الجزيرة العربية فى ذلك الوقت ٠

تركز الوجود اليهودى فى الجزيرة العربية فى المدينة وشمالها من ناحية وفى بعض منـاطق اليمن جنوباً من ناحية أخرى ، ويهمنا بالطبع هنا فى اطار دراسة التكتيك النبوى فى مواجهة اليهود ،التركيز علي تلك التجمعات اليهودية فى المدينة وشمالها ، وكان هؤلاء يتكونون مـن ثلاث قوى وتجمعات يهودية داخل المدينة هى بنو قينقاع وبنو قريظة وبنو النضير ، وخـارج المدينة فى خيبر وفدك وتيماء وغيرها على امتداد ٤٢٠ كيلو متر شمال المدينة حتى تخـوم الجزيرة العربية الشمالية ، وذكر السمهودى فى وفاء الوفا ص ١١٦ ان عدد القبائل اليهودية فى تلك المناطق يزيد على عشرين ٠

وقد جاء هؤلاء اليهود مهاجرين الى الجزيرة العربية نتيجة الضغط البابلى والآشورى علـيهم فـى فلسطين وتخريب هيكلهم وسبى أكثرهم على يد الملك بختنصر (سنة ٥٨٧ ق٠م) فهاجر قسم منهم الى الحجاز وتوطن فى ربوعها الشمالية ، وكذلك عقب احتلال الرومان لفلسـطين سـنة ٧٠ ق٠م ونشأ عن اضطهاد الرومان لليهود أن هاجر عدد منهم الى الحجاز واستقر فى يثرب وخيبر وتيماء كما دخل بعض العرب عن طريق هؤلاء اليهود فى اليهودية ، إلا أن ذلك ظل أمراً محدوداً بالطبع ، ومن ناحية أخرى فإن تلك التجمعات اليهودية فى يثرب وخارجها ظلت متمسكة بعصبيتها الجنسـية والدينية رغم أنهم أخذوا الصبغة العربية فى اللغة والزى والأسماء وكانوا دائماً يفتخرون بجنسيتهم الإسرائيلية ولم يندمجوا فى العرب قط ، بل كانوا يحتقرونهم ويسمونهم أميين كعادة اليهـود فـى النظر الى غيرهم من الأجناس ، وكانوا يرون أن أموال العرب مباحة لهم يأكلونها كيـف شـاءوا " قالوا ليس علينا فى الأميين سبيل " ولم يكن لهم تحمس فى نشر دينهم وانما جل بضـاعتهم هـى الفأل والسحر والنفث والرؤية وغيرها " المباركفورى - الرحيق المختوم صـ ٢١١ ٠

وسيطر اليهود على أعمال التجارة عموماً وتجارة الخمر والسلاح خصوصاً ، وكانوا بالطبع يمارسون الربا على نطاق واسع وأثاروا دائماً العدوان والبغضاء بين القبائل العربية ليحققوا مكاسبهم المعروفة من الحروب التى تقع بين القبائل العربية فتروج تجارة السلاح وتروج أعمال الربا واستطاع اليهود بهذه الوسائل أن يحققوا ثراء واسعاً ونفوذاً داخل تلك البلاد .

****

كان من الطبيعى أن يعرف اليهود أن النبى محمد – صلى الله عليه وسلم – نبى صادق ، وأنه جاء بالحق وذلك بحكم معرفتهم بالكتب والبشريات التى بشرت بالرسول صلى الله عليه وسلم وبعلاماته الصادقة ، ولكنهم رفضوا بالطبع الانصياع الى الحق " فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين " ، وقد كان رفضهم الايمان بمحمد يرجع الى تكبرهم على الحق من ناحية ، وعلى خوفهم من ضياع نفوذهم وثرائهم بسبب ما توقعوه من تغيير الخريطة الثقافية والاقتصادية والسياسية إذا انتصر الإسلام ، وهكذا أضمر اليهود الحقد والمؤامرات على الاسلام وعلى محمد صلى الله عليه وسلم واستعداداً لحرب شرسة ضده ، ومع ذلك عاملهم الرسول صلى الله عليه وسلم بالتسامح وفقاً لقيم ومبادىء الإسلام العليا فى أول عهده بالمدينة ، ولم يبدأ الحرب عليهم إلا بعد أن قاموا بمؤامرات مادية ومعنوية ضد الكيان الاسلامى الوليد فى المدينة المنورة .

****

دستور المدينة

بمجرد أن استقر الرسول صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، وأقام فيها المجتمع الاسلامى الوليد، قام الرسول صلى الله عليه وسلم بعقد ميثاق وعهد ووثيقة مكتوبة تنظم العلاقات بين مختلف القوى والطوائف والتجمعات والأفراد داخل هذا المجتمع ، وكان من الطبيعى – بفضل سماحة الاسلام وبفضل حرص الاسلام على حماية حقوق الأقليات الدينية والعرقية ، أن يسمح الرسول صلى الله عليه وسلم لليهود فى المدينة بالدخول فى هذا العقد ، الذى يمثل أرقى ما عرفت البشرية من عقود لحماية حقوق الأقليات الأمر الذى يعكس قيم الاسلام العليا – راجع نص وثيقة المدينة فى سيرة ابن هشام ، وفى الرحيق المختوم للمباركتورى ، وكذلك فى الدراسة الهامة التى كتبها الدكتور كمال السعيد حبيب فى مجلة منبر الشرق ، العدد (١) السنة الأولى مارس ١٩٩٢ ، ص ١١٥ تحت عنوان قراءة جديدة فى وثيقة المدينة وهى قراءة شديدة التميز والأهمية ،وكذا في الاعمال الكامة للمفكر عصمت سيف الدولة .

وعلينا أن ندرك أن مجتمع المدينة فى ذلك الوقت كان يمثل كياناً سياسياً متميزاً ، يمثل الرسول صلى الله عليه وسلم فيه القائد الأعلى ، ويمثل المسلمون من المهاجرين والأنصار الأغلبية مع وجود أقليات من المشركين ومن اليهود كأفراد أو كجماعات .

كانت الوثيقة تنص على وجود حقوق لليهود – مثل المسلمين ، وكانت ترتب علاقات وواجبات ، وتسمح لليهود بالمشاركة فى المعارك التى يخوضها المسلمون – دون إلزامهم بذلك – فإذا شاركوا بأنفسهم أو أموالهم فى الحروب مع المسلمين حصلوا على نصيبهم فى الغنائم ، وبديهى أن الوثيقة نصت على وجوب عدم تعاون أهل الوثيقة مع القوى المعادية – قريش مثلاً – وعدم خيانة أهل المدينة أو إفشاء أسرار المجتمع أو مساعدة الأعداء على انتهاك الأمن الداخلى لهذا المجتمع ، واحترام حقوق الدماء والأموال وغيرها ، وأن أى نقض لذلك يترتب عليه خرق الوثيقة بما يترتب على ذلك من آثار .

دخل اليهود فى وثيقة المدينة إذن ، وكان عليهم الالتزام بها بالطبع والذين دخلوا فى تلك الوثيقة من اليهود هم يهود المدينة وما حولها مثل بنى قريظة وكانوا يعيشون فى ضاحية يثرب من جهة الجنوب الشرقى ، وبنى النضير وكانوا يعيشون فى ضاحية يثرب جهة الغرب، وبنى قينقاع وكانوا يقيمون داخل المدينة ذاتها مع قبائل بنى عوف وبنى النجار كان بنو قينقاع حلفاء للخزرج ، أما بنو النضير وبنو قريظة فكانوا حلفاء للأوس .

أما اليهود خارج المدينة مثل خيبر التى تقع على بعد ٨٠ ميلاً شمال المدينة وهى من أقوى الحصون والمواقع اليهودية فى الجزيرة العربية فى ذلك الوقت ، وكذلك يهود فدك وتيماء وكل هؤلاء لم يكونوا أطرافاً فى الحلف والميثاق المدون بوثيقة المدينة .

****

ولاشك أن تعامل الرسول – صلى الله عليه وسلم – وسياساته تجاه اليهود تمثل العدل المطلق ، وتعكس قيم الاسلام العليا ، فقد حرص على التعايش بين المسلمين واليهود وغيرهم بدون ظلم لأحد ، وهذه التجربة فى التعايش تمثل نموذجاً فذاً للتعايش بين الأكثرية والأقلية فى أى زمان ومكان ، وكذلك فى حرص الرسول صلى الله عليه وسلم على كتابة نص يمثل الحقوق المتبادلة فى وثيقة مكتوبة وهو أمر يمثل سابقة هامة على مستوى السوابق الدستورية .

ولكن اليهود نقضوا العهود ، فكان من الطبيعى أن تتغير سياسة الرسول صلى الله عليه وسلم تجاههم ، فيسقط المعاهدة مع المتعاهدين منهم ويتصرف مع الباقين على مستوى كل حدث ٠ كان اليهود قد تحركوا على أكثر من مستوى للكيد للدعوة الاسلامية الوليدة وكذا لشن حملـــة دعائية وإعلامية ضد الدين الإسلامى الحنيف ، وضد الرسول صلى الله عليه وسلم ، والتربص بنساء المؤمنين ، وإنفاق الأموال لدفع القبائل العربية لشن الحروب على دولة الرسول صـــلى الله عليه وسلم فى المدينة وتحريض قريش وغيرها وتمويل الحرب ضد المسلمين وكذا تخطيط أكثر من مؤامرة لاغتيال الرسول صلى الله عليه وسلم ويمكننا أن نقسم سياسة المواجهة ضد اليهود التى خاضها الرسول صلى الله عليه وسلم الى قسمين ، قسم خاص بتنفيذ عـــدد مـــن عمليات الاغتيال لمجرمى الحرب اليهود وزعماء المؤامرات ، والقسم الثانى خاص بـــالحروب والغزوات ضد تجمعات اليهود ٠

أما القسم الأول الخاص باغتيال زعماء المؤامرات ومجرمى الحرب اليهود مثل اغتيال كعب بن الأشرف ، وابن سنينة ، وسلام بن أبى الحقيق المعروف بأبى رافع اليهودى ، وهؤلاء كـــانوا من ممولى الحروب ضد دولة الرسول بالمدينة ، وكذلك قاموا بجهد كبير فى تحريض القبائـــل العربية على قتال المسلمين فى المدينة ، والتعريض بأعراض المسلمات فى المدينة عن طريق الشعر ، وكذلك الحرب الاعلامية والدعائية ضد المسلمين ، والمحاولات الخطيرة لشق المجتمع الاسلامى فى المدينة وإحداث حرب أهلية داخلها عن طريق بث الأفكار والاشاعات والمواقـــف مستخدمين فى ذلك المنافقين ، وهكذا فإن عمليات الاغتيال تلك كانت عقوبة على عمل مـــادى قام به هؤلاء ، وكذلك عملية إجهاضية لمؤامرات تم نسجها وبث الرعب فـــى نفـــوس بـــاقى أطراف تلك المؤامرات.

أما القسم الثانى وهو الغزو ضد التجمعات اليهودية ، فحدث أولاً مع بنى قينقاع ، فبـــرغم أن بنى قينقاع كانت داخلة فى وثيقة المدينة ، وبرغم احترام المسلمين لهذه الوثيقة تماماً ، فـــإن بنى قينقاع بدأوا خاصة بعد انتصار المسلمين فى بدر فى التحرش بالمســـلمين واســـتفزازهم والتهديد بدخول معركة معهم يهزمون فيها المسلمين لأنهم على حد قولهم أقوى مـــن قـــريش وأشجع ولن ينهزموا مثل قريش الذين لا يعرفون فن الحرب على حد قول بنى قينقاع ، وكذلك إيذاء المسلمين والتحرش بالنساء المسلمات ، ووصل الأمر الى حد محاولة إحداث حرب أهلية

بين الأوس والخزرج ، وهذا بالطبع أمر خطير جداً – يستحق أقصى العقوبة ، ذلك أن أحـدهم وهو شاس بن قيس وكان شيخاً يهودياً شديد المكر أمر أحد الفتيان اليهـود ، بالـذهاب الـى مجالس الأوس والخزرج حيث يجتمع شبابهم عادة ، ثم تذكيرهم بأيام الحروب والعداوات بينهم وتحريضهم على قتال بعضهم بعض ، وقد نفذ الفتى اليهودى ذلك الأمر ، وكادت تحدث معركة بين الأوس والخزرج ، فقد تشاجر بعض الأوس مع بعض الخزرج ، ثم تواعدوا على الحرب ، وتنادوا الى السلاح ، ولولا أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد أدرك الموقف سريعاً وذهـب اليهم وقال لهم " يا معشر المسلمين الله الله ، أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهـركم ؟! بعـد أن هداكم الله للاسلام وأكرمكم به ، وقطع به عنكم أمر الجاهلية واستنقذكم به من الكفر وألف بين قلوبكم " فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان ، وكيد من عدوهم ، فبكوا وعانق الرجـال مـن الأوس والخزرج بعضهم بعضا ثم انصرفوا مع رسول الله صلى الله عليـه وسـلم سـامعين مطيعين قد أطفأ الله عنهم كيد عدوهم وعدو الله شاس بـن قـيس ذلـك اليهـودى الملعـون "المباكفورى – الرحيق المختوم – صـ٢٧٧، ٢٧٨ " .

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم ، كلما فعل اليهود شيئاً من ذلك دعاهم ووعظهـم وطلـب منهم احترام الميثاق بين الطرفين دون جدوى .

وكان لابد أن يفكر الرسول صلى الله عليه وسلم فى حماية الأمن الاجتماعى للدولة الذى تهدده مؤامرات اليهود واشاعاتهم وأقوالهم وأراجيفهم .

وحدث أن اعتدى اليهود على إحدى النساء المؤمنات كانت تشترى بعض الأشياء من السوق، وجلست الى أحد الصاغة اليهود ، فأرادوا كشف وجهها فأبت المرأة ذلك ، فعمد الصائغ الى طرف ثوبها فعقده الى ظهرها وهى غافلة ، فلما قامت انكشفت سوأتها ، فضحكوا منها ، فصـاحت فوثـب رجـل مـن المسلمين على الصائغ اليهودى فقتله ، فشدت اليهود على المسلم فقتلوه ، فاستصرخ أهـل المسـلم المسلمين على اليهود فوقع الشر بينهم وبين بنى قينقاع " (سيرة بن هشام ٢ / ٤٧ ، ٤٨) .

وكانت هذه الحادثة سبباً مباشراً فى نقض العهد والوثيقة بين المسـلمين واليهـود ، وقـرر الرسول صلى الله عليه وسلم أن يغزو بنى قينقاع بعد ذلك ، فسار اليهم الرسول صلى الله عليه وسلم بجيشه فى شوال سنة ٢ هـ ، فتحصنوا فى حصونهم ، وحاصرهم الرسول صـلى الله عليه وسلم خمسة عشر يوماً وانتهى الأمر بتسليمهم ، فعفا الرسول صلى الله عليه وسلم عنهم وأمر بخروجهم من المدينة فخرجوا منها ، ويجب أن نلاحظ هنا عدد من الملاحظات :

- أن يهود بنى قينقاع هم الذين نقضوا العهد بما فعلوه مع المرأة المسلمة فى السوق ، وأن هذا لم يكن أول شكل من أشكال النقض ولكنه أكثرها مباشرة ووضوحاً ، وأنهم قبل ذلك قاموا بالكثير من الأمور الناقضة لذلك العهد مثل الإيقاع بين الأوس والخزرج ، أو إيذاء المسلمين أو التهديد بحـرب المسلمين ، والتهديد بحرب المسلمين له قصة معروفة فى السيرة ونزل بها القرآن الكـريم ، ذلـك أنهم قالوا بعد انتصار المسلمين فى بدر " يا محمد لا يغرنك أنك قتلت نفـراً مـن قـريش ، كـانوا أغمارا لا يعرفون القتال ، انك لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس ، وأنك لم تلق مثلنا " ٠٠ وكان هذا بالطبع تهديداً واضحاً بالحرب ضد المسلمين ، وكان بنو قينقاع مغتربين بقوتهم فقـد كـان لـديهم ٧٠٠ مقاتل وكانوا معروفين بالمهارة فى فن القتال ٠

- أنه كان الرسول صلى الله عليه وسلم يسير معهم بمقتضى العدل ، بل بالرحمة أيضاً فقد احتـرم الميثاق معهم تماماً ، وصبر على ممارساتهم المخالفة للميثاق عدة مرات ، ولكن عندما وصل الأمر الى تهديد الأمن الداخلى لمجتمع المدينة فإنه باعتباره قائداً عاماً لهذه الدولة كان عليه أن يجهـض المؤامرات وأن يقضى على بؤرة الفتنة داخل المدينة فكان غزوهم ثم إجلاؤهم، ونلاحظ أن الرسول لم يأمر بقتلهم رغم أنهم تحصنوا بحصونهم عند الغزو أى بدأوا فى معركة ولـم يصـمدوا حتـى النهاية فاستسلموا بعد حصار خمسة عشر يوماً ، وكان من حق الرسول ان يأخذهم أسـرى علـى الأقل ، ولكنه عفا عنهم وسمح لهم بالجلاء عن المدينة ، فحقق بذلك الأمن الاجتماعى داخل المدينة ، وعاقب اليهود عقاباً طفيفاً على مؤامراتهم من ناحية أخرى ٠

- ان الرسول صلى الله عليه وسلم كان يسمح ويريد تعايش المسلمين مع اليهود فى المدينـة بـدون مشاكل وفقاً لقيم العدل الاسلامى بل وقيمة العدل المطلق بدليل أنه عندما نقضت بنو قينقاع الميثـاق ، عاقبهم وحدهم دون باقى جماعات اليهود فى المدينة مثل بنى النضير وبنى قريظة واسـتمر محترمـا للميثاق معهم حتى نقضوه هم أنفسهم ٠

- ان التسوية لم تكن قاسية ولكنها حققت الهدف أيضاً ، لأن المطلوب كان حماية الجبهـة الداخليـة لمجتمع المدينة وهذا تحقق بجلاء يهود بنى قينقاع ٠

•••••••

أما يهود بنى النضير ، فإنهم أيضاً هم الذين نقضوا الميثاق ، ومثل باقى اليهود كانوا يضمرون الحقـد على الاسلام ، ويحرضون القبائل على حرب الرسول ويمولون ذلك ، ويقومون بدورهم فـى الحـرب الاعلامية ضد المسلمين ، ولكن وتيرة التآمر عندهم زادت بصورة كبيرة بعد غزوة أحد التى انهزم فيها المسلمون أمام قريش فقد تجرأ يهود بنى النضير بعد هزيمة المسلمين فى أحـد فكاشـفوا بالعـداوة

والبغضاء وأخذوا يتصلون بالمشركين والمنافقين ثم دبروا فى النهاية مؤامرة لقتل الرسول صلى الله عليه وسلم عن طريق إلقاء رحى عليه عندما جلس عندهم للتفاوض حول مساهمتهم فى دية بعض القتلى من الكلابيين الذين قتلهم عمرو بن أمية الضمرى وفقاً لشروط الوثيقة .

فلما انكشفت المؤامرة ، التى شاركوا فيها جميعاً ، بالتخطيط أو التنفيذ أو الموافقة ، ذلك أن محاولة القتل تلك لم تكن عملاً فردياً ، بل قراراً اتخذه زعماؤهم ووافقوا عليه جميعاً ، ثم تم تكليف بعضهم بتنفيذه ، الا ان الله تعالى أخبر به الرسول، فقام قبل تنفيذ المؤامرة ونجا من المحاولة ، ثم قرر الرسول صلى الله عليه وسلم أن يطلب منهم الرحيل عن المدينة جزاء ما فعلوا ، وأمهلهم عشرة أيام إلا أنهم رفضوا ذلك ، وكان هذا اعلاناً للحرب بالطبع ، فمن ناحية فإنهم لم ينكروا مؤامراتهم لقتل الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولكن اعترفوا بها وصمموا على رفض طلب خروجهم من المدينة ، فكانت الحرب لابد واقعة ، فسار اليهم الرسول صلى الله عليه وسلم بجيشه ، وحاصرهم ستة أيام الى أن استسلموا ، فسمح لهم الرسول بالخروج من المدينة ولهم أن يحملوا معهم ما شاءوا من الأموال والأمتعة ما عدا السلاح ، وكانت هذه عقوبة رحيمة أيضاً بالنظر الى ما فعلوا وبالنظر الى رفضهم قبول طلب الرسول اليهم بالرحيل فى خلال عشرة أيام وتمسكهم بالحرب وتحصنهم داخل الحصون ثم استسلامهم بعد حصار دام ستة أيام .

وأيضاً لم يؤثر نقض كل من بنى قينقاع وبنى النضير للميثاق مع الرسول صلى الله عليه وسلم على موقف الجماعة اليهودية الوحيدة الباقية فى المدينة وهى بنى قريظة التى ظل المسلمون يحترمون الميثاق معها الى أن نقضها بنو قريظة نقضاً فظيعاً ، أقل ما يقال فيه أنه الخيانة العظمى ذلك أن اليهود عموماً فى داخل المدينة وخارجها ، ومن بنى قريظة نفسها قاموا بالعمل على حشد عدد كبير من القبائل العربية فيما يسمى بغزوة الأحزاب وقاموا بتمويل تلك الحشود ، ليس هذا فحسب بل إن بنى قريظة اتفقت مع الأحزاب على دخول المدينة عن طريق بنى قريظة الا ان تلك الخطة فشلت ، وعندما أرسل الرسول اليهم لكى يعرف حقيقة نواياهم - والمدينة محاصرة بجيوش الأحزاب - قالوا لوفد المسلمين اليهم وكان يتكون من : سعد بن عبادة ، وسعد بن معاذ وعبد الله بن رواحه ، قالوا لهم أنه لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد وأخذوا يسبون الرسول صلى الله عليه وسلم ويتوعدون المسلمين وكذلك قامت بنى قريظة بأعمال الحرب المباشرة ، بمحاولة دخول أحد الحصون التى كانت نساء المسلمين تتجمعن بها بعد خروج الرجال الى المواجهة مع الأحزاب ويسمى حصن فارع أى محاولة ضرب المسلمين فى نسائهم من الخلف ، ولولا شجاعة صفية بنت عبد المطلب التى قتلت أحد اليهود الذى حاول تسلق الحصن ، فرجع الآخرون بعد أن ظنوا أن هناك حراسة قوية على الحصن لحدثت كارثة .

المهم أن الله أراد النصر للمسلمين وأرسل ريحاً على الأحزاب فاضطروا للجلاء والرجوع الى بلادهم ، وكان من الطبيعى أن ينال يهود بنو قريظة العقوبة الملائمة على الجرائم التى ارتكبوها فى ذلك الوقت العصيب فى حق المسلمين رغم وجود الميثاق بينهما وهذه الجرائم تمثل أبشع أنواع الخيانة العظمى ٠

فهى أولاً التعاون مع العدو أثناء حالة الحرب ، وثانياً ضرب مؤخرة المسلمين بل ومحاولة الاعتداء على النساء ، الاعتراف جهراً بنقض العهد ، وسب الرسول صلى الله عليه وسلم ، والاتفاق مع الأحزاب على دخول المدينة من طريق بنى قريظة ٠

وهكذا كان من الطبيعى أن يعمد الرسول صلى الله عليه وسلم الى غزوهم بمجرد جلاء قوات الأحزاب ، وفى نفس اليوم الذى رجع فيه الرسول الى المدينة أمر بعدم الراحة والزحف فوراً الى بنى قريظة وقال " من كان سامعاً مطيعاً فلا يصلين العصر الا فى بنى قريظة " وسار الجيش الى بنى قريظة ، وحاصرهم فى حصونهم الى أن استسلموا وكان بنو قريظة من حلفاء الأوس ، فتم الاتفاق على أن يحكم فيهم سيد الأوس سعد بن معاذ ، وكان مريضاً فى ذلك الوقت ، فجيء به الى المكان فقام بالحكم عليهم حكماً مناسباً يتلائم مع جرائمهم ، رغم أنه كان حليفاً لهم من قبل ولا يعقل أن يظلمهم أو يقسو عليهم – ولكن مقتضى العدل وحجم جرائمهم لم تكن تسمح الا بهذا الحكم الذى حكمه عليهم سعد بن معاذ حيث حكم بقتل الرجال وسبى النساء وتقسيم الأموال ٠

****

وهكذا كانت تلك هى ممارسات الرسول صلى الله عليه وسلم مع يهود يثرب فهو أولاً أراد التعايش معهم وإعطاء كل حقوق المواطنة لهم فى اطار دولة المدينة ، لدرجة السماح لهم بالقتال معه ضد أعدائها مع اعطائهم حقهم فى الغنائم بناء على ذلك كمواطنين فى دولة المدينة ، أفراداً وجماعات إلا أنهم رفضوا التعايش ، وخانوا الميثاق والعهد المكتوب فاستحقوا العقوبة على جرائمهم ، ونلاحظ ان العقوبات دائماً كانت إما متكافئة مع جرائمهم أو أقل من تلك الجرائم مما يؤكد روح العدل والرحمة التى عاملهم بها الرسول صلى الله عليه وسلم ٠

****

بقى بعد ذلك تجمعات يهودية خارج المدينة ، وهذه لم تكن داخلة بالطبع فى عهد وميثاق من أهل المدينة ، وبالتالى يخضعون لنفس المعايير التى خضعت لها معادلات الصراع بين المسلمين وبين مختلف القبائل العربية فى الجزيرة العربية ، كان هناك خيبر وتيماء وفدك ووادى القرى ، وتقع خيبر على بعد ٨٠ ميلاً شمال المدينة ، وكانت خيبر أهم وأغنى تجمعات اليهود فى الجزيرة العربية وأكثرها قوة ، كانت خيبر تدبر منذ بدايات الدعوة الاسلامية الكثير من المؤامرات على الاسلام بالتنسيق والتعاون مع باقى يهود الجزيرة العربية، كانت خيبر هى وكر الدس والتآمر فهى التى قامت بالدور الأكبر فى تحريض القبائل وتمويل زحفها على المدينة فى غزو الأحزاب ، وكانت تتصل بالمنافقين فى المدينة وكانت قد أصبحت ملجأ لكل زعماء اليهود وجماعاتهم المتآمرة بعد ضياع كيانهم فى المدينة، وكانت خيبر قد أعدت خطة لاغتيال الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكذلك كانت تستعد للزحف الى المدينة مع عدد من الجيوش والقبائل للقضاء على المسلمين فيها بعد أن نجح المسلمون فى القضاء على الكثير من القوى المعادية لهم ، أى أنها كانت المحطة الأخيرة لتجميع كل فلول الشرك فى الجزيرة العربية وعمل المؤامرة الكبرى على الاسلام ، وكان من الطبيعى وفقاً للتكتيك النبوى من إجهاض تلك البؤرة ، وما أن فرغ المسلمون من تهدئة جبهة قريش بصلح الحديبية توجه مع جيشه سنة ٧ هـ الى خيبر لغزوها ، وقد نجح المسلمون فى فتح خيبر بعد قتال صعب ومرير ، وقد تركهم الرسول بعد ذلك يعملون فى الأرض مقابل جزءاً من الثمار ، وهذا من رحمة النبى – إلا أنه صادر أموالهم وسلاحهم حتى لا يصبحوا من جديد قادرين على حشد الجيوش أو تمويل الحروب ضد دولة المسلمين .

وحدث نفس الشىء مع يهود وادى القرى ، وصالح يهود فدك على نفس ما صالح عليه أهل خيبر ، أما يهود تيماء فقد أرسلوا من أنفسهم يطلبون الصلح فكتب لهم الرسول بذلك ما معناه"هذا كتاب محمد رسول الله ، إن لهم الذمة وعليهم الجزية ، ولاعداء ولاجلاء الليل من النهار شد " طبقات ابن سعد .

••••••••

وهكذا كان التكتيك النبوى تجاه اليهود هو العدل والرغبة فى التعايش أولاً ، فإذا ما نقضوا العهد كانت هناك عمليات الاجهاض والحرب الهجومية والوقائية وعدم تركهم حتى تكتمل مؤامراتهم ، والمحافظة على أمن الدولة الاسلامية الوليدة ، وامتلاك زمام المبادرة دائماً .

زوال اسرائيل
(نبوءة قرآنية – حتمية تاريخية – ضرورة استراتيجية)

هل هو إغراق فى التفاؤل كرد فعل على حالة شديدة الصعوبة والقسوة تمر على المنطقة وعلينا ٠٠ أم هو نوع من خداع النفس ؟ أم هو نوع من الهروب من مواجهة تحديات ضخمة تمثلها جيوش وبواخر وأسلحة ودمار وقتل وترويع وتدخل سافر فى شئوننا وصل الى حد تحديد ما نتعلمه وما لا نتعلمه ٠٠ أم هو نوع من التشبث بالأمل حتى لا نستسلم لليأس ؟!

ليس هذا ولا ذاك ٠٠ بل هو الحقيقة إن شاء الله ، فإذا كنا نؤمن حقاً بالقرآن الكريم ، فإن النبوءة القرآنية تتحدث بالفعل عن زوال إسرائيل " وقضينا إلى بنى إسرائيل فى الكتاب لتفسدن فى الأرض مرتين ولتعلن علواً كبيراً ، فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عباداً لنا أولى بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولاً ، ثم أعدنا لكم الكرة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيراً ، إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها ، فإذا جاء وعد الآخرة ، ليسؤوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ما علوا تتبيرا " (سورة الإسراء) ٠

وإذا كان القرآن الكريم يتحدث عن زوال اسرائيل فإن هذا يصل الى درجة اليقين المطلق لدى كل مسلم ، وهو يقين مفيد لجعله لا ييأس أبداً مهما اختل ميزان القوى ، ومهما كانت الظروف الدولية والإقليمية صعبة ، لأن الله تعالى الجبار المتعال القادر على كل شىء ، والأكبر من كل قوة هو الذى وعد بذلك ، ووعده الحق إن شاء الله تعالى ، وبالتالى فإن استمرار المقاومة بكل أشكالها ، ومهما كانت الصعوبات هو الطريق الصحيح والمشروع والمتفق مع النهج القرآنى ، وهذا فى حد ذاته أحد علامات النصر إن شاء الله ٠

•••••••

زوال إسرائيل أيضاً حتمية تاريخية ، ذلك أن إنشاء دولة اسرائيل هو على عكس حركة التاريخ والجغرافيا ، وهو نوع من تثبيت جسم غريب فى كائن حى يرفضه ، ومهما كانت قوة اللصق والتثبت فإنها ستنتهى يوماً ، وهذه المنطقة العربية الاسلامية ، منطقة شديدة العمق حضارياً وثقافياً ، وذات كثافة سكانية عالية ولا يمكن بكل الوسائل والطرق ، ولا حتى بالإبادة امكانية تفريغ المنطقة من السكان ، أو تفريغها من وجدانها الثقافى والدينى ولأن المنطقة هى أعمق مناطق العالم ثقافة ، فهى ستلفظ بالضرورة هذا الجسم الغريب ، واذا كان الغرب قد أراد أن يتخلص من المشكلة اليهودية بإنشاء إسرائيل ، ويستفيد منها فى نفس الوقت كمفرزة عسكرية متقدمة ضد قلب العالم العربى والاسلامى ، فإنه أيضاً كان يدرك أن المنطقة لن تقبل ذلك ، لا بسهولة ولا بصعوبة ، ولم يكن هذا يهم الغرب بالطبع

، فلسان حاله يقول فليذهب العرب واليهود الى الجحيم ، ولأن اليهود أغبياء فقد بلعوا الطعم ، ومارسوا غدرهم وحقدهم على المسلمين بلا هوادة ، ولكن ذلك أيضاً لن يفلح فى تثبيت كيان غريب وملفوظ جملة وتفصيلا .. مهما كانت القوة العسكرية الإسرائيلية ، ومهما كانت قوة الدعم الأمريكية والغربية للكيان الصهيونى ، ومهما كانت وسائل الترهيب فلن تفلح فى القضاء على مقاومة الجسم العربى الاسلامى ولا القضاءعلى مناعته فى مواجهة هذا الجسم الغريب ، ومهما كانت قوة التضليل وغسيل المخ وقوة الإغراءات والمشروعات لإقناع الشعوب بقبول التعايش مع إسرائيل أو التخلى عن الهوية والثقافة أو تفسير الاسلام تفسيراً جزئياً أو مغلوطاً ، فإن ذلك لن ينجح ، بل هو أحد المستحيلات "والله متم نوره ولو كره الكافرون " .

••••••

المنطقة العربية والاسلامية وتحديداً قلبها فلسطين ، ليست منطقة خالية من السكان ، ولا خالية من الثقافة ، بل هى عميقة وكثيفة حضارياً وبشرياً ، بل ربما هى الأعمق والأكثف فى العالم، وهكذا فإن زوال إسرائيل حتمية حضارية ، قد ينجح الضغط فى تثبيت مؤقت لذلك الكيان ، قد يتورط حاكم أو مجموعة بشرية أو دولة أو حتى جيل بأكمله فى التعايش المستحيل مع إسرائيل ، ولكن هذا ضد منطق الاشياء ولن يستمر طويلاً .

•••••••

هذه الحقيقة بدأ يدركها مفكرو وقادة العدو الصهيونى أنفسهم ، فهم يتحدثون عن وطن بلا مستقبل ، أو أنهم أخذوا أكبر مقلب أو (خازوق) على حد تعبير أحد الشعراء الصهاينة فى استقباله لأحد المهاجرين الجدد قائلاً له " تعال واجلس على الخازوق مثلنا " .

••••••

المقاومة هنا شرط لازم لزوال إسرائيل .. والمقاومة قد اندلعت بالفعل وامتلكت الطريق الصحيح بل وأفرزت ظاهرة رائعة وهى العمليات الاستشهادية ، وهذا سلاح لا يمكن القضاء عليه ، لقد تمت عمليات استشهادية فى جميع أنحاء فلسطين المحتلة ، فى الجليل ، وتل أبيب ويافا وعكا وفى الضفة وغزة ، وضد مستعمرات شديدة الحراسة وضد مستوطنين مسلحين ، وضد كتائب الجيش الصهيونى ذاتها تمت هذه العمليات فى جميع الأحوال والأوقات ، وهذا يعنى أن كل الاستخبارات والتحصينات والأقمار الصناعية ووسائل التكنولوجيا الحديثة والقديمة لم تكن حائلاً دون استمرار هذه العمليات ، لا امكانيات الجيش الصهيونى ، ولا الجيش الأمريكى ولا محاولات السلطة ، ولا الضغوط الدولية ، ولا حالة الهجوم الاعلامى المستمر على تلك العمليات ووصفها بالإرهابية ، ولا

محاولات ارهاب الشعب الفلسطينى وترويعه ، ولا الاغتيالات ونسف البيوت ولا وحشية شارون ومن قبله ومن بعده ولا الأسوار والأطواق الأمنية حالت دون استمرار ونجاح تلك العمليات ، والقيمة الكبرى لتلك العمليات ليس فى مدى ما تحدثه من خسائر فى صفوف العدو ، بل بما تبثه من رعب فى نفوس الإسرائيليين وما تحدثه بالتالى من خلل فى المجتمع الإسرائيلى ، بل ما تحققه من نسف لفكرة الصهيونية ذاتها ، لأن الفكرة الصهيونية بالنسبة لليهود الصهاينة هى التجمع فى مكان آمن " وطن قومى " بعد أن عانى اليهود من الاضطهاد العنصرى فى أوروبا تحديداً !! وهذا بالطبع ليس ذنب العرب والمسلمين الذين يعاملون غير المسلمين بما فيهم اليهود معاملة تليق بالعدل الاسلامى والأوامر الشرعية الإسلامية ، ولعل ممارسات التاريخ القديم والحديث تؤكد ذلك ، المهم أن الغرب نجح فى إقناع اليهود بأن فلسطين ستكون مكاناً آمناً بالنسبة لهم ، فهى أرض بلا شعب ، ومنطقة سوف تقبل بالقهر والإغراء ، وهى أيضاً ترجمة للتفسير المحرف للتوراة أو التلمود ، ولكن جاءت حقائق التاريخ والجغرافيا والثقافة والمقاومة لتقول العكس ، فالشعب الفلسطينى موجود ، وهو لن يفرط فى أرضه ، وهو يمتلك أعلى نسبة خصوبة قادرة على إحداث توازن سكانى باستمرار مهما استمرت عملية الإبادة الصهيونية ، والثقافة العربية الاسلامية عميقة الجذور لن تسمح بقبول دائم لإسرائيل فى المنطقة ، والنص القرآنى والمناهج الاسلامية الثابتة منتشرة بقوة فى المنطقة المحيطة ، وهذا معناه استمرار الدعم المادى والمعنوى ، بل وخروج الاستشهاديين من غير الفلسطينيين من العرب والمسلمين ، والممارسات الاسرائيلية والأمريكية فى المنطقة تدفع الشعوب دفعاً إلى إدراك أن الجهاد والمقاومة ليست فقط فريضة شرعية بل هى ضرورة حياتية وطريق بلا بديل والا فالهزيمة والخضوع وفقدان الكرامة ،وهكذا وبفضل المقاومة ، أصبحت فلسطين أقل الأماكن فى العالم أماناً بالنسبة لليهودى وهذا ينسف فكرة الصهيونية من جذورها ، وهكذا فإن المقاومة فى الحقيقة والتى وصلت الى حد مطاردة الإسرائيليين فى بيوتهم ومطاعمهم ونواديهم ومستوطناتهم وثكناتهم العسكرية بل وخارج فلسطين ذاتها ، فىٍ كينيا على يد مجاهدين ليسوا فلسطينيين بل مسلمين ينتمون الى تيارات عربية اخرى ، هذه المقاومة تقول ان فكرة الوطن الآمن فكرة مزيفة ، وأن على يهود إسرائيل أن يعيشوا فى خوف ورعب دائمين ، وإذا كان الأمر بالنسبة للإسرائيلى مفهوماً حين يقوم بالقتال من أجل إنشاء وطن واستمراره وتثبيته ، فهذا لا يكون الا لفترة محدودة وبتضحيات معينة ، أما أن تتحول المسألة الى قلق وخوف دائم واستنفار مستمر ، وقتال بلا نهاية منظورة فهذا فوق الطاقة ، واذا كان ذلك هو قدر العرب

والمسلمين لأن هذه بلادهم وليس لهم بلاد غيرها ، فإن ذلك ليس حتمياً بالنسبة ليهـود إسـرائيل، لأنهم يمكنهم العودة من حيث أتوا أو أتى آباؤهم ، وبديهى أن حلم الاستقرار والتمتع بمباهج الحياة حلم كل إنسان ، وخاصة الأجيال الجديدة فى إسرائيل وهكذا فالمقاومة نسفت الفكرة الصـهيونية ، أما سيناريو زوال إسرائيل فهو مجرد تفاصيل .

****

تفسخ وانهيار المجتمع الإسرائيلى من الداخل ، وشيوع حالة الخوف والفـزع لـدى الإسـرائيليين "أحرص الناس على حياة " ، ونهاية هذه الصهيونية ذاتها ، أمر أصبح محسوساً ومعروفاً وترصده مراكز الأبحاث بل ويراه أى مفكر موضوعى داخل إسرائيل أو خارجها ، بل إن تقريراً أعدته لجنـة مشتركة من الكنيست ومجلس الوزراء الإسرائيلى الدائم وصل الى نفس النتيجة وهو أن الأمور لو سارت بنفس الطريقة فسوف ينهار المجتمع الإسرائيلى من الداخل خلال ٢٠ عاماً وأنه لابـد مـن علاج الموضوع ٠٠ وبديهى أن تلك أمانيهم فالعلاج موضوعياً وحضارياً واستراتيجياً مسـتحيل ، المهم ان التقرير يتحدث عن أن المقاومة والانتفاضة تسببت فى عجز فى الميزانية بلغ ٣٠% مـن عام ٢٠٠٠ وحتى الآن سنوياً ، وأن الميزانية العسكرية تسـتهلك ٦٠% مـن عائـدات اسـرائيل القومية ، واذا كان علاج ذلك ميسوراً عن طريق ضخ الأموال لاسرائيل من أمريكا أو الدول التـى صنعت إسرائيل وتستفيد منها مثل أمريكا حالياً فأن علاج الخوف والفزع الإسرائيلى لا يمكن أن يتم لا عن طريق أمريكا ولا غيرها ، يتحدث التقرير أيضاً عن أن ٣٠% من المواطنين لـديهم رغبـة أكيدة فى مغادرة اسرائيل ، وأن ١٣% من الأسر الإسرائيلية ترفض الانجاب ، وأن معدل المواليـد انخفض بنسبة ٢,٥% ، وتقول الأسر الرافضـة للإنجـاب بـرغم تـوفر الامكانيـات الشخصـية والاقتصادية كذلك أنها لا تريد إنجاب أطفال ليموتوا وأن أحداً فى إسرائيل لا يضمن الآن العودة الى أطفاله سالما أو عودة أطفاله اليه من المدرسة سالمين !!

ويرصد التقرير حالة الهروب من الجيش أو رفض الخدمة فى الأراضى المحتلة وتدنى حالـة الشـعور بالوطنية لدى الجيل الجديد الذى يعبر عن رغبته فى العيش بأمان وأنه من الصعب استمرار التوتر الى الأبد !! ويعترف التقرير ان هناك شعوراً بعدم الأمان يسيطر على الإسرائيليين ، وأن الأولاد والأمهات والزوجات يخشون الآن النزول الى الشوارع أو السوق وأن المسألة قد انتقلت من كوننا كنا " يقصـد إسرائيل " نتحكم فى مصائر الفلسطينيين الا ان الفلسطينيين هم الذين قد يتحكمون فى مصير إسـرائيل خاصة أنهم يتحركون بلا نظام ومن الصعب بالتالى الامساك بتلابيبهم او تحديد وسيلة ناجحة للقضـاء على إرهابهم !!

العداء للسامية .. الأصل والصورة

ظهر مصطلح العداء للسامية لأول مرة عام ١٨٧٩ على يد الصحفى الألمانى اليهودى "فيلهيلم مــار " عندما أصدر كتاباً بعنوان " انتصار اليهودية على الألمانية " ، وكانت تلك الفترة قــد شــهدت أحــداثاً اقتصادية ومضاربات عقب الحرب الفرنسية البروسية أدت الى إفلاس كثير من الأغنياء الألمــان فــى بروسيا وفرنسا وعدد من دول شرق ووسط أوروبا ، وحمل الأوربيون وقتها المسألة والمسئولية على اليهود ، الذين تم اتهامهم بأنهم متآمرون ، وبدأت سلسلة من الاضطهادات لهم ، وفى الحقيقــة فــإن الاضطهاد الأوروبى لليهود شكل مساحة كبيرة من التاريخ الأوروبى لأسباب كثيرة لعل أهمها الــروح العنصرية الأوروبية التى لا ترى الحق فى الانسانية إلا للأوروبى ، والاضطهاد الأوروبى والعنصــرية الأوروبية لم يطالا اليهود وحدهم بل طالت المسلمين والزنوج والهنود الحمر، فالعنصرية جزء لا يتجزأ من الوجدان الأوروبى والقيم الحضارية الأوروبية .

ولعلنا نفهم المسألة إذا أدركنا أن حرب الاسترداد المسيحية الأوروبية للأندلس " أسبانيا والبرتغــال " ، شهدت اضطهاداً وإبادة لكل مسلم ويهودى على حد سواء ، وقد استمرت تلك العملية بصورة أو أخرى ، ولكنها طالت اليهود فيما بعد أكثر لأن هؤلاء ظلوا كأقليات فى بعض الدول الأوروبية ، ولعل تــاريخ روسيا القيصرية وألمانيا النازية مفعم بحوادث الاضطهاد تلك ، فى حين أن اليهود عاشوا فى بلاد مثل إيران واليمن والعراق ومصر والمغرب وليبيا وغيرها من البلاد الاسلامية بدون أية مشاكل من أى نوع ، وحصلوا على امتيازات وثروات فى طول البلاد الاسلامية وعرضها حتى قيام إسرائيل حين فضل عدد منهم بسبب الغباء والتضليل الهجرة إلى إسرائيل ، ولكن من بقى منهم فى إيران أو المغرب أو مصر أو العراق أو غيرها ظل يتمتع بحقوق المواطنة وروح التسامح الاسلامى المعروف حتى اليوم .

....

استخدمت الجماعات الصهيونية والموالين لها مصطلح العداء للسامية لترعب به كل من ينتقد اليهود أو الإسرائيليين أو الصهيونية وذلك عندما بدأ التحالف الغربى الصــهيونى المعاصــر . ولكــن حقيقــة المصطلح والمشاعر مخالفة لما يستخدم فيه والصورة المستعملة تخالف الأصل تماماً .

....

العداء للسامية فى حقيقته هو عداء عنصرى أوروبى ضد كل الجنسيات السامية مــن عــرب ويهــود وغيرهم ، وهو جزء من العنصرية الأوروبية المعروفة ، ويمكن لأى متابع للثقافة الأوروبية فى كــل عصورها بما فيه ما يسمى بعض الاستنارة والتنوير أن يكتشف جذور وملامح تلك العنصــرية ومنهــا

العداء للسامية بالطبع ، بل ان الدكتور عبد الوهاب المسيرى فى موسوعته عـن اليهـود واليهوديـة والعنصرية أثبت أن الألمان الذين كانوا يقتلون اليهود فى الحقبة النازية ، كـانوا يسـتخدمون كلمـة المسلمين للدلالة على هؤلاء اليهود وهو ما يكشف مضمون العداء للسامية ، وكذا فإن الكاتب الفرنسى هانوتو عام ١٩٠٠ قد زعم فى حواره مع الشيخ محمد عبده ، أن هناك عيوباً أخلاقية مثل الكسل فى الجنس السامى على عكس الآرى لأسباب تتصل بالعقائد ورد عليه الشيخ محمد عبده مفنداً ذلك ومدافعاً عن العرب والمسلمين واليهود ٠

•••••••••

فى إطار الروح العنصرية والعداء للسامية حاول الأوروبيون التخلص من اليهود فى أوروبا – كزبالـة بشرية – فنشأت فكرة إنشاء وطن لهم فى فلسطين لتحقيق هدف التخلص منهم ، ولاستخدامهم كجماعة وظيفية تقوم بدور الوكيل عن الغرب – ثم أمريكا – ومفرزة عسكرية متقدمة جسر للغرب فى قلب العالم العربى والاسلامى لمنع نهضته والكيد له وضربه كلما كان ذلك مطلوباً على يد هذه الجماعة الوظيفية ، وهكذا نشأت فكرة الصهيونية أو إنشاء وطن قومى لليهود فى فلسطين فى أروقة أجهـزة المخـابرات ودوائر وزارات الخارجية الأوروبية منذ نابليون بونابرت الذى دعا الى ذلك فعلاً وحتى وعـد بلفـور ١٩١٧ وقد تلقف عدد من اليهود غير المتدينيين الفكرة ودعوا اليها بدءاً من هرتزل ١٨٩٧ وانتهـاء بوايزمان وبن جوريون حتى تأسست الدولة الصهيونية عام ١٩٤٨ وهكذا فإن الذين تلقفوا الفكرة من اليهود الصهاينة إنما ساعدوا الغرب وكانوا أداة له للتخلص من اليهود فى أوروبا والنكاية فى العـالم العربى وتحويل هؤلاء اليهود الصهاينة الى جماعة مرتزقة تقوم بدور العدوان لحساب الغرب ، وهكذا فإن إنشاء دولة إسرائيل فى حد ذاته هو نوع وتجسيد للعداء للسامية وأحد إفرازات هذا العداء وأكبـر تجلى له ، وقد أدرك هذا الأمر عدد من اليهود غير الصهاينة الذين رفضوا قيام إسـرائيل ولايزالـون يدعون الى ازالتها ، ورفضوا الفكرة الصهيونية من أساسها باعتبارها فكرة معادية لليهود واليهوديـة وأوامر الرب على حد سواء، والأمر كذلك بالفعل ، ولعل جماعة ناطورى كارتا بما فيهـا مـن يهـود وحاخامات خير مثال على ذلك ٠

••••••••

نحن كعرب وكمسلمين لسنا معادين للسامية ، لأننا لن نعادى أنفسنا بل العداء للسامية فى جوهره موجه لنا نحن ، وإسرائيل هى التجسيد الأكبر للعداء للسامية ، وهكذا فإن النضال من أجل إزالة إسرائيل هو جوهر ومضمون النضال ضد فكرة العداء للسامية ونحن أيضاً لسنا معادين لليهود واليهودية " لكم دينكم ولى دين " ، ومطالبون بالعدل مع غير المسلمين والتسامح معهم ولكننا فى نفس الوقت شديدو العداء للإسرائيليين وكل من يعيش فى فلسطين المحتلة من اليهود " ماعدا اليهود من أصل فلسطينى وهم عدة

آلاف فقط " ، وندعو اليهود الذين يعيشون فى فلسطين المحتلة الى مغادرتها والعودة من حيث أتـوا ، وندعو الدول العربية والاسلامية الى فتح أبوابها لعودة من يريد العودة من اليهود فى إسرائيل للعيش فى تلك البلاد وذلك لحل المشكلة الفلسطينية ومن لا يريد أن يترك فلسطين لأهلها ، فإنه يستحق بالتالى القتل وهو مجرم وسفاح ومغتصب ، وهكذا فنحن ندعو الى الكفاح المسلح لتدمير إسرائيل وتدمير هذا الكيان الاستعمارى ، ونؤيد العمليات الاستشهادية ضد كل اسرائيلى فى أى مكان بالعالم لأنه ببسـاطة مغتصب يستحق القتال والقتل ، ولن تسقط عنه صفة المغتصب ما لم يعد من حيث أتى أو أتى آبـاؤه ويترك فلسطين لأهلها الشرعيين •

••••••

لا يعنينا بالطبع مناقشة ما إذا كان اليهود حقاً يتآمرون على الشعوب ويستحقون بالتالى الاضطهاد الذى وقع عليهم ، أم إن ذلك كان نوعاً من العداء الوجدانى المتصل بالمسيحية أو غيرهـا لليهـود بسـبب موقفهم من المسيح ، كما لا يعنينا إن كانت البروتوكولات المنسوبة لهم صحيحة أم ملفقة ولا يعنينـا الحديث عن موضوع استخدام دم مسيحى لفطير صهيون يوم عيد الفصح أو غير ذلك مما يقـال عـن اليهود ، الذى يعنينا أننا نرفض الظلم الذى وقع على أى إنسان حتى لو كان يهودياً ونقبل أن يحاكم كل من يتآمر على شعب من الشعوب وينال عقابه فرداً كان أو جماعة ، ويعنينا أيضاً أن ندافع عن حقوقنا المشروعة فى فلسطين بكل الوسائل بما فيها العمليات الاستشهادية ضد كل ما هو إسرائيل وفـى كـل مكان فى العالم ، ويعنينا أن نفهم أن إسرائيل فكرة صهيونية وإفراز غربى أيضاً والا تخدعنا تصريحات هنا وهناك عن حقيقة أن إسرائيل مجرد عصا يمسك بها الغرب وأمريكا لقمعنا ونهبنا والقضاء علـى حضارتنا وربما وجودنا وأنه يجب تحطيم العصا ومن يحملها أيضاً ، وأن المعركـة طويلـة وصـعبة وقاسية وفى كل الأحوال نحن ضد العنصرية ولا نقبل أن نمارسها أو يمارسها أحد علينا أو على غيرنا ، وضد الظلم والعدوان وضد المشروع الصهيونى الأمريكى الغربى الذى هو معادى للسامية فى جوهره ، وليس من العدل ولا الإنصاف ولا المصلحة لنا أن نتورط فى الدفاع عن هتلر أو الفرح بتصـريحات لوبان ضد اليهود أو غيرها من الممارسات العنصرية الأوروبية لأنها تشملنا أيضاً •

وهكذا فإن العداء للسامية كان هو السبب فى ظهور إسرائيل ودعمها واستمرارها لأن العداء للسـامية وجدان غربى موجه ضد العرب والمسلمين قبل اليهود •

الحرب العالمية الرابعة

اعتبر البروفيسور " اليوت كوهين " أن الحرب الباردة ضد الشيوعية كانت الحرب العالمية الثالثة ، وأن أمريكا والغرب الرأسمالى قد حققا فيها انتصاراً ساحقاً ، وهو ما عبر عنه الرئيس الأمريكى الأسبق ريتشارد نيكسون ، فى كتابه المعنون بـ " نصر بلا حرب " وحسب البروفيسور " اليوت كوهين " أيضاً فإن أمريكا تعتبر نفسها الآن تخوض الحرب العالمية الرابعة ضد العالم الإسلامى تحت إسم مواجهة الارهاب الاسلامى ، وفى الحقيقة فإن الوجدان الغربى الصليبى كان ولايزال قوياً ، وهذا الوجدان الصليبى العميق فى تلافيف العقل الغربى وجد الآن من يستغله متمثلاً فى عصابة اليمين الأمريكى الجديد التى ركبت إدارة جورج بوش الابن واستغلت أحداث ١١ سبتمبر لنشر أفكارها وتنفيذها حول السيطرة على العالم ومفاهيم الامبراطورية الأمريكية الجديدة وهى مفاهيم وأفكار – سابقة بالطبع – على أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ حيث ان فكرة اعتبار العالم الاسلامى خطراً على الحضارة الغربية فكرة سابقة على أحداث ١١ سبتمبر ، وهى فكرة تقليدية فى الوجدان الغربى أولاً ، وتصاعدت بقوة فى الثمانينات والتسعينات من القرن الماضى – بمناسبة سقوط الخطر الشيوعى وتفكك الاتحاد السوفيتى السابق والمنظومة الاشتراكية الدولية ، الأمر الذى جعل الولايات المتحدة تنتقل من الحرب العالمية الثالثة الى الحرب العالمية الرابعة ، وقد عبر عن ذلك الرئيس الأمريكى الأسبق ريتشارد نيكسون فى كتابه الفرصة السانحة حيث اعتبر أن الاسلام سوف يصبح قوة جيوبوليتكية خطيرة وأنه مع التزايد السكانى والامكانيات المادية المتاحة سوف يشكل المسلمون مخاطر كبيرة " وأن الغرب سوف يتحد مع الاتحاد السوفيتى ليواجه هذا الخطر ، وكان ذلك قبل تفكك الاتحاد السوفيتى .

ويقول إدوارد سعيد – المفكر الفلسطينى وأستاذ الجامعة الحاصل على الجنسية الأمريكية – أن هناك قوى فى أمريكا والغرب نجحت فى نشر صورة سلبية عن الاسلام باعتباره " خطراً على الحضارة الغربية " وقد كتب إدوارد سعيد هذا الكلام عام ١٩٨١ ... ومعنى ذلك أن هناك قوى تهيىء الرأى العام الغربى منذ فترة طويلة لقبول الحرب العالمية الرابعة ضد الاسلام ، وعند سقوط الاتحاد السوفيتى السابق برزت مارجريت تاتشر رئيسة الوزراء البريطانية السابقة

استمرار وتقوية حلف الناتو بوجود الخطر الاسلامى ، وهو نفس ما عبر عنه رئيس مجلس الوزراء الأوروبى الأسبق " جياتى ديميلكس " قائلاً لمراسل مجلة النيوزويك الأمريكية عندما سأله عن السبب فى بقاء حلف الأطلنطى بعد نهاية المعسكر الشيوعى " صحيح أن المواجهة مع المعسكر الشيوعى قد انتهت ولكن هناك مواجهة أخرى لابد أن نستعد لها وهى مواجهة العالم العربى والاسلامى وعلى أوروبا أن تحل مشكلاتها لتتفرغ لهذا العدو الخطير " .

والحقيقة التى لا مراء فيها حتى بصرف النظر عن تصريحات هؤلاء الزعماء والقادة الغربيين وغيرهم – وهى كثيرة جداً بطريقة لا يكاد يحصيها الانسان وربما لا يصدقها من شدة تطرفها وصليبيتها وعنصريتها وغطرستها ، الحقيقة التى لا مراء فيها أن الصراع بين الاسلام والغرب أستمر فى الزمان فى المكان من تبوك وحتى العدوان على العراق مروراً بحروب الأندلس ، والحروب الصليبية والاستعمار والصهيونية .. الخ ، وأن القرآن الكريم قد عبر ذلك ، وهو الصدق المطلق " ولايزالون يقاتلونكم حتى يردونكم عن دينكم إن استطاعوا " (سورة البقرة الآية ٢١٧) .

الخوف من الاسلام ، والحرب على الاسلام لهما أسبابهما التاريخية والوجدانية والمصلحية فى الوجدان الغربى ، وإذا كنا ندرك أن عصابة اليمين الأمريكى ودعاة الامبراطورية الأمريكية الذين يحلمون بسيطرة أمريكا على العالم ، قد أعدوا الخطط لذلك من قبل عام ١٩٩٧ – على الأقل – على يد ديك تشينى ، ورونالد رامسفيلد ، وبول وولفوفيتز ، وريتشارد بيرل ، وجيمس ولسى ، ووليام كريستول وروبرت كاجان وغيرهم الذين وقعوا على ما يسمى " الاعلان الامبراطورى الأمريكى " عام ١٩٩٧ ، فإن هؤلاء أدركوا أن الطريق الى تلك الامبراطورية الامريكية لن يكون سهلاً ولا متوقعاً الا اذا تمت إزاحة العقبة الاسلامية ، المتمثلة فى وجود مفاهيم وأفكار إسلامية حول المقاومة والكفاح والجهاد والدفاع عن المستضعفين وعدم قبول الخضوع وغيرها وأنه لابد من إزالة ذلك بالحرب والسلام ، وبالدعاية والاعلام معاً ، وبالإضافة الى ذلك فإن المؤسسة شديدة التأثير فى السياسة الأمريكية وهى المجمع الصناعى العسكرى الرأسمالى من مصلحتها اختراع الحروب لترويج صناعة السلاح وكذا فإن التحدى النظرى الاسلامى للرأسمالية كفكرة وأيديولوجية أمر أصبح معروفاً فى أوساط المفكرين والمتطرفين الغربيين ، حيث من الممكن أن يتحول الاسلام الى أيديولوجية للفقراء

والمستضعفين ومن الممكن أن يكون الاسلام جذراً ثقافياً للثورة العالمية ضد الرأسمالية خاصة بعد إفلاس الشيوعية ، وهى كلها اعتبارات ترشح الاسلام كهدف للحرب العالمية الرابعة ، وهو ما حدث بالفعل .

وقد حملت هذه الحرب أشكالاً متنوعة ، ومازالت تحمل فى طياتها المزيد من الوسائل ، وقد تخلت أمريكا والغرب عن أية أخلاق شكلية فى اطار هذه الحرب لأنها من وجهة نظرهم حرب ، وفى الحرب يسقطون كل الاعتبارات الأخلاقية ، ولم يعد غريباً أن نسمع أنباء قتل الأسرى أو إطلاق الرصاص على العزل ، أو تعذيب المعتقلين ، المهم أن هذه الحرب اشتملت على الوسائل العسكرية المباشرة متمثلة فى المزيد من العدوان الصهيونى ومتمثلة فى غزو واحتلال أفغانستان ، ثم غزو واحتلال العراق واستخدام أحدث الوسائل العسكرية الفتاكة وأحدثها فى هذا الصدد ، كما اشتملت على محاولة ترويض الجمهور الاسلامى بالدعايات الكاذبة ، ومحاولة تشويه المفاهيم الاسلامية بما يسمى بتطوير مناهج التعليم لدعم ما يسمى بثقافة السلام – الصحيح ثقافة الاستسلام – وتقليص المدارس الدينية الشرعية وحصار المؤسسات التربوية والاعلامية الاسلامية ، وإنشاء قنوات فضائية وصحف تعمل على ترويج النموذج الأمريكى والإساءة للمقاومة " العراقية والفلسطينية خصوصاً " بل وصل الأمر إلى حد أن تطلب الادارة الأمريكية اغلاق المساجد الصغيرة والزوايا بدعوى أنها بؤر لتفريخ التطرف وأن يتم استخدام تصريح – به تعقيدات كثيرة – لإنشاء أى مسجد جديد ، وكذا محاربة العمل الخيرى الاسلامى ، واتهام الجمعيات الخيرية الاسلامية ، باعتبارها الساق التى تربط الأوراق والثمار بـ الفروع بالجذور ، اتهامها بالإرهاب وحلها ومصادرة أموالها والإساءة الى سمعة القائمين عليها أو حتى اعتقالهم وسجنهم وتلفيق القضايا لهم .

وهى كلها أساليب فى حرب عالمية رابعة شاملة ضد الإسلام والمسلمين ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

طبيعة تركيب وتوجهات المجتمع الصهيونى

لكى نستطيع أن نواجه التحدى الصهيونى ، الذى مثل ويمثل أكبر التحديات وأخطرها بالنسبة لأمتنا وهويتنا وحضارتنا ومصالحنا ومستقبلنا بل ووجودنا ذاته ، ينبغى أن نعرف طبيعة هذا الكيان وتوجهاته ٠

وقد يبدو للوهلة الأولى أن هناك تعارضاً بين منظورين لفهم طبيعة المجتمع الصهيونى ، الأولى ترى أنه جزء من مشروع الهيمنة الغربى على المنطقة فى اطار الصراع الحضارى ، والثانية : ترى أن المجتمع الصهيونى مجتمع توراتى دينى قائم على الأسطورة الدينية وأن اليهود بما لهم من نفوذ مالى وإعلامى وغيره نجحوا فى السيطرة على صناعة القرار الغربى فحصلوا على الدعم اللازم لمشروعهم ٠

والحقيقة أنه بشيىء من التركيب يمكن أن نجد أن للمفهومين أصلهما التاريخى والواقعى ، فالكيان الصهيونى نشأ أصلاً من رغبة غربية استعمارية لإقامة كيان أو مجموعة وظيفية فى هذه البقعة الحساسة من قلب العالم العربى والاسلامى كجزء من مشروع الهيمنة الغربية على المنطقة ، وكحلقة من حلقات الصراع الحضارى بين الحضارة الغربية والحضارة الاسلامية وتلاقت هذه الرغبة الاستعمارية أو غذت مفهوم الحلم والأسطورة المزيفة لدى اليهود عن حق العودة الى فلسطين وإقامة وطن قومى لهم على أساس التفسير المحرف للتوراه المحرفة أصلاً، أو على أساس الدعاية الدينية اليهودية لجمع يهود العالم فى هذه البقعة ، وفى الحقيقة أن الرغبتين والمصلحتين التقتا فى لحظة تاريخية تمخض عنها قيام هذا الكيان ، ويجب هنا أن ندرك أن هناك وجداناً غربياً كارهاً ومعادياً لليهود أصلاً ؛ ومارس الاضطهاد بحقهم طويلاً ، وبذلك فإن إقامة وطن قومى لهم يحقق هدفين ، الأول هو التخلص من اليهود كزبالة بشرية غير مرغوب فيها من الغرب ، ويحقق ثانياً الاستفادة من هذا الكيان فى تحقيق الأهداف الاستعمارية والكيد للحضارة الاسلامية وتمزيق وحدة المنطقة ومنع نهوضها أو تطورها واستمرار نهبها ٠

إذن فالكيان الصهيونى هو مشروع غربى فى الأساس تم صياغته داخل أروقة المؤسسات الاستعمارية الغربية قبل أن يفكر فيه هرتزل بفترة طويلة ، فهناك على سبيل المثال لا الحصر نداء نابليون بونابرت الى يهود العالم من أجل إعادة إنشاء مملكة القدس القديمة " سنة ١٧٩٩ " فى اطار المشروع الاستعمارى فى الشرق الذى كان يحلم به نابليون وهناك دعوة الرئيس الامريكى

جون آدامز الى استعادة اليهود لفلسطين " سنة ١٨١٨ " وهناك مذكرة سكرتير البحرية الانجليزية الى وزير الخارجية بالمرستون التى يقترح فيها دعوة أوروبا الى إعادة اليهود الى فلسطين " عام ١٨٣٩ " وهناك برنامج اللورسافنبرى الى مؤتمر لندن بشأن توطين اليهود فى فلسطين " سنة ١٨٤٠ " وهناك مشروع إدوارد تنورد لإقامة دولة يهودية متكاملة فى فلسطين تحت الحماية الانجليزية المؤقتة إلى أن تتمكن هذه الدولة من الوقوف على قدميها سنة ١٨٤٥ ، وهناك كتاب أرنست لاهان المستشار الخاص لنابليون الثالث فى المسألة الشرقية " إعادة بناء أمة اليهود " سنة ١٨٦٠ وهناك كتاب " أرض جلفاد " للورنس أوليفنت عضو البرلمان الانجليزى ووزير الخارجية والذى يقترح فيه إقامة مستوطنة يهودية على مساحة ١,٥ مليون فدان فى الأردن وفلسطين عام ١٨٨٠ ، ثم هناك تأسيس بلاكستون فى شيكاغو لمنظمة البعثة العبرية نيابة عن إسرائيل من أجل حث اليهود على الهجرة الى فلسطين ، ومذكرة بلاكستون الى الرئيس الامريكى بنيامين هاريسون ووزير خارجيته جيمس لين بإنشاء وطن قومى لليهود عام ١٨٩١ وصدور كتاب الدبلوماسى الانجليزى وليمر هشلر " إعادة اليهود إلى فلسطين " الصادر عام ١٨٩٤ ، كل هذا قبل صدور كتاب تيودور هرتزل "الدولة اليهودية" الذى صدر عام ١٨٩٦ .

وفى هذا الصدد يقول جمال حمدان فى كتابه " استراتيجية الاستعمار والتحرير " ص ١٦٨ "التقت الامبريالية العالمية مع الصهيونية لقاء تاريخياً على طريق واحد هو المصلحة الاستعمارية المتبادلة فيكون الوطن اليهودى قاعدة تابعة وحليفا مضمونا أبداً يخدم مصالح الاستعمار وذلك ثمناً لخلقه إياه وضمانه لبقائه ، ويقول أيضاً فى نفس الكتاب ص ١٧٦ " الاستعمار هو الذى خلق إسرائيل بالسياسة والحرب وهو الذى غيرها بكل وسائل الحياة من أسلحة وأموال وهو الذى يضمن بقاءها ويحميها علنا " .

ويؤكد روجيه جارودى على هذه الحقيقة أيضاً بقوله " إن الأب الروحى للصهيونية تيودور هرتزل أشعل الرغبة الاستعمارية فى خلق إسرائيل وقدم لها مبررات إقامة هذه الدولة على أساس أنه اذا قامت إحدى الدول الاستعمارية بحماية هذه الدولة اليهودية فسوف تتمتع بميزة على خصومها ، لأن هذه الدولة ستعتبر رأس حربة مفروشة فى المنطقة من أجل التغلغل الاستعمارى وكتب تيودور هرتزل سنة ١٨٩٥ فى كتابه الدولة اليهودية قائلاً " ستكون هذه الدولة بالنسبة الى أوروبا متراسا ضد آسيا وستكون بمثابة الحصن المتقدم للحضارة ضد البربرية " .

وفى محاضرة لروجيه جارودى فى ١٣/١٠/١٩٩٦ فى فندق الماريوت بالقاهرة قال " إن إسرائيل ستلعب دوراً هاماً فى المواجهة الحضارية بين العالم الغربى والعالم الاسلامى نظراً لموقعها الاستراتيجى فى قلب العالم الاسلامى " .

****

واذا كانت هذه هى أهداف السياسة الاستعمارية من خلق إسرائيل لتكون وكيلاً للاستعمار الغربى وجماعة وظيفية لأداء وتنفيذ أهدافه ، فإن القادة الصهاينة لعبوا على تلك النقطة تجاه الرأى العام الغربى وقواه السياسية وأجهزته ومؤسساته الحاكمة ، وفى نفس الوقت لعبوا على الأسطورة التاريخية لدى اليهود عن الوعد التوراتى بإقامة وطن قومى لليهود فى فلسطين ، وسواء كان هذا السلوك من قادة الصهاينة نوعاً من الدجل والدعاية أو يعبر عن اقتناعهم الحقيقى ، وسواء كان هؤلاء القادة الصهاينة ملحدين أو مؤمنين فإنهم عكسوا فى سلوكهم وتصريحاتهم وبنائهم للكيان الصهيونى تفسيراً أسطورياً توراتياً ، محرفاً بالطبع ومزيفاً وكاذباً .

فجولدا مائير زعيمة حزب العمل التاريخية فى تصريح لها لصحيفة لوموند الفرنسية ١٥/٥/١٩٧١ تصرح " نشأ هذا البلد تنفيذاً لوعد الرب ذاته ولهذا لا يصح أن نسأله إيضاحاً عن شرعية هذا الوجود " .

ومناحم بيجين " ليكود " يصرح لصحيفة دافار الإسرائيلية ١٤/٢/١٩٧٨ بقوله " لقد وعدنا الرب هذه الأرض ولنا الحق فيها " .

أما موشى دايان " ملحد " فيقول " إذا كنا نملك التوراة واذا كنا نعتبر أنفسنا شعب التوراة فينبغى أن نمتلك أيضاً بلاد التوراة ، بلاد القضاة أرض أورشليم وحيرون وأريحا " جيروزاليم بوست ١٠/٨/١٩٦٧ .

وهكذا يتردد دائماً على ألسنة الزعماء الصهاينة نفس المنطق سواء كانوا من اليمين أو اليسار أعضاء فى حزب العمل أو فى كتلة الليكود ، ناطقين باسم الجيش أو الحاخامية فالتوراة ترسم كل شىء فى إسرائيل ، ترسم ثقافة الأطفال فى المدارس ، فبناء على توجيه دافيد بن جوريون فإن الدين اليهودى فى إسرائيل يدرس كمادة إجبارية فى المدارس .

والزواج فى إسرائيل زواج دينى ، ولا يوجد فى إسرائيل دستور لأن التوراة هى القانون الأساسى للدولة والتوراة هى التى تعرّف المواطن وتحدد من هو الإسرائيلى وهى ذاتها تحدد حدود الدولة ، بل وتبرر الحرب والإرهاب " علينا ألا ننسى أجزاء التوراة التى تبرر هذه الحرب

فنحن نؤدى واجبنا الدينى بتواجدنا هنا فالنص المكتوب يفرض علينا واجباً دينياً وهو أن نغزو أرض العدو " حاخام برتبة نقيب – هاآرتس ١٩٨٢/٧/٥ .

والمذابح من دير ياسين إلى صابرا وشاتيلا تبررها التوراة " وحرقوا كل ما فى المدينة من رجل وامرأة وطفل ومسن وشيخ حتى البقر والحمير بحد السيف"سفر يشوع الاصحاح ٦آية ٢١ .

وبالطبع فإن هذا الفهم للتوراة – وهى محرفة أصلاً – هو بدوره فهم مغلوط ، والحديث عن الوعد الإلهى لـ بنى إسرائيل فى التوراة حديث مغلوط ، لأن يهود إسرائيل أولاً ليسوا هم أبناء اليهود الأوائل من ناحية فهم من يهود الخزر غالباً ، وحتى لو فرض أنهم أبناؤهم فقد فقدوا أهليتهم بسبب عصيانهم التاريخى المستمر لأنبيائهم ، وأنه بعد الاسلام بالذات فإن الأمة الاسلامية هى الأمة الرسالية ، ونحن بالتالى أولي من اليهود بإبراهيم واسحق ويعقوب ويوسف وموسى وداوود وسليمان وزكريا ويحيى وعيسى بن مريم عليهم السلام ، وأن هؤلاء الأنبياء وغيرهم قد بايعوا محمداً الرسول صلى الله عليه وسلم أثناء رحلة الإسراء والمعراج عندما أمهم فى تلك الليلة فى الصلاة فى بيت المقدس ، وأن موسى وداوود وسليمان وغيرهم من أنبياء بنى إسرائيل لو بعثوا اليوم ما كان بوسعهم إلا الدخول فى الاسلام ، باعتباره الدين الحق الحنيف الذى جاء به إبراهيم أصلاً من عند الله وجاء به النبيون من قبله ومن بعده ، والذى جاء محمد صلى الله عليه وسلم ليكون به خاتم الأنبياء ، وليكون المسلمون هم ورثة كل وعد إلهى .

****

والكيان الصهيونى كيان عنصرى ، فهو قائم فى تعريف المواطنة وكذا فى سلوكه السياسى على فكرة تجميع يهود العالم الذى يزعم أنهم من أب واحد وكتلة عرقية ودينية واحدة وأنهم شعب الله المختار وبقية العالم عبيد لهم ، والديمقراطية الإسرائيلية لليهود فقط .

والكيان الإسرائيلى كيان عسكرى وعدوانى ، فإسرائيل تنفق ٥٠% من ميزانيتها على الجيش والمؤسسة العسكرية تتحكم فى كل شىء فى إسرائيل تقريباً ، وعلى حد تعبير بنيامين نتنياهو " فإن القوة العسكرية مؤسسة لا بديل عنها للمحافظة على أمن إسرائيل ونظريات السلام مع العرب ونظريات الخلاص اليهودى بالسلام يدلان على رؤية غير واقعية للواقع السياسى الإسرائيلى وعلى أحلام كاذبة تنبع من محاولة الهروب من الصراع المحتوم علينا نتيجة وجودنا كامة بين الشعوب العربية " بنيامين نتنياهو – كتاب "مكان تحت الشمس " .

وهكذا فالمفهوم الإسرائيلى للسلام يتلخص فى التفوق العسكرى والخضوع الكامل عسكرياً وسياسياً من جانب العرب للهيمنة الاسرائيلية ، وهذا بالطبع يستدعى استمرار وجود قوة عسكرية هائلة ، واستمرار توجيه ضربات إجهاضية لكل محاولة عربية لامتلاك القوة ٠

••••••••

ولأن الكيان الصهيونى جماعة وظيفية أولاً لممارسة العدوان لحساب الاستعمار الغربى "الأمريكى حالياً" ، ولأن حقيقة وجودهم مصنوع وغير طبيعى فإن المجتمع الإسرائيلى الذى قام على سلب حقوق الآخرين يحس بهاجس الأمن أو ما يسمى بعقدة الأمن وهى عقدة ناجمة عن إحساس إسرائيلى داخلى بأن وجودهم على هذه الأرض غير شرعى ، ولم تفلح محاولات زرع ثقافة مصطنعة فى إعطاء الإسرائيليين الشعور بالانتماء أو المشروعية ولذا فإن المجتمع الإسرائيلى مجتمع معسكر ، فأنماط المعيشة فى إسرائيل " المستوطنات ، الكيبوتزات ، الموشوفات " وطريقة التجنيد والتعبئة ونظام الاحتياط ووضع المؤسسة العسكرية السياسى من حيث كونها مصدراً للنخب السياسية والأمنية رفيعة المستوى ، وأهمية حقيبة وزارة الدفاع فى الحكومات الإسرائيلية ونسبة مخصصات الميزانية العامة الإسرائيلية للانفاق العسكرى ، توضح الوضع الذى تمثله المؤسسة العسكرية فى إسرائيل ٠

••••••••

ويعانى المجتمع الإسرائيلى أيضاً من مسألة عدم تجانس اليهود القادمين من مختلف بقاع العالم، من غرب أوروبا وأمريكا ، ومن شرق أوروبا ، ومن اليمن والعراق والمغرب وروسيا والحبشة وغيرها ، وكل منهم يحمل ثقافة مختلفة ، ولن يفلح الحديث عن الأسطورة التاريخية أو وحدة الأصل اليهودى فى صهر هذا المزيج غير المتجانس ، وكذلك فإن الوجود العربى الفلسطينى داخل فلسطين المحتلة يمثل مشكلة كبيرة بالنسبة لإسرائيل ، فلا هى قادرة أو راغبة على إعطائهم دولة مستقلة ، ولا هى قادرة أو راغبة على إعطائهم حقوقهم السياسية كمواطنين اسرائيليين ومع تزايد معدلات النمو السكانى الفلسطينى فإن مشكلة ديموجرافية خطيرة ستواجه الكيان الصهيونى ٠

هدم المسجد الأقصى

الحديث الإسرائيلى عن وجود مؤامرة يديرها متطرفون إسرائيليون " وكلهـم متطرفـون " لنسف المسجد الأقصى من الجو ، عن طريق طائرة بدون طيار أو عن طريق طائرة يقودها انتحارى إسرائيلى ، حديث يجب ألا يمر بهدوء ، ويجب أن يؤخذ بجدية ، ذلك أن التخطيط لهدم المسجد الأقصى ليس وليد هذه اللحظة ، بل هو عملية نوعية جديدة تتكـرر وسـوف تتكرر لأنها جزء لا يتجزأ من العقيدة الصهيونية وهى عقيدة لا تخص اليهـود الصـهاينة وحدهم ، بل تخص قطاعاً كبيراً من المسيحية البروتستانتية " المسيحية الصهيونية " ، ذلك أن تلك العقيدة المزعومة يؤمن أتباعها أن من شـروط عـودة المسـيح وقـوع معركـة هرمجدون للقضاء على الأشرار " المسلمون تحديداً واليهود أيضاً " ، وبدايـة مـا يسـمى بالألفية السعيدة ، أن من شروط ذلك هدم المسجد الأقصى وإقامة هيكل سليمان فى مكانه ، حيث يعتقد هؤلاء أن هيكل سليمان يقع تحت المسجد الأقصى ، وهكذا فـنحن أمـام قـوى إسرائيلية ، ويهودية صهيونية ، ومسيحية بروتستانتية صهيونية ، والأخيرة لهـا أتبـاع كثيرون فى الدول البروتستانتية وخاصة الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا وأسـتراليا ، وعلى سبيل المثال لا الحصر فإن هناك داخل الولايات المتحدة نفوذاً قوياً لتلـك العقيـدة ، وهناك كنائس تبشر بذلك وتدعو إليه وتجمع من رعاياها المال اللازم لتمويل عمليـة هـدم المسجد الأقصى وبناء الهيكل ، ودعم إسرائيل سياسياً وإعلامياً كجزء من تحقيق شـروط عودة المسيح المزعومة ، كما تتمتع هذه الجماعة بنفوذ قوى داخل الحزب الجمهورى فى الولايات المتحدة ويتعاطف معها بصورة ضخمة رموز اليمين الأمريكى المحافظ مـن ديـك تشينى الى دونالد رامسفيلد الى الرئيس بوش ذاته وكان الرئيس الأمريكى الأسبق رونالـد ريجان يؤمن مباشرة بتلك العقيدة المزعومة ، كما تمتلك تلك الجماعة قنـوات تليفزيونيـة وإذاعية وصحفاً ويتبعها عدد كبير من القساوسة أمثال بـات روبرتسـون والأب جراهـام وغيرهما .

وهكذا فنحن أمام تهديد جدى - مهما كان غريباً ومتطرفاً - لهدم المسجد الأقصى ، الأمر الذى يستدعى تحركاً شعبياً وحكومياً عربياً وإسلامياً .

محاولات هدم المسجد الأقصى بدأت منذ عام ١٩٦٩ أى بعد عامين فقط من الاحتلال الإسرائيلى لمدينة القدس مما يؤكد مدى تغلغل هذه الفكرة فى العقل الصهيونى المسيحى واليهودى علـى حد سواء ، وقد كانت المحاولة الأولى بحرق المسجد الأقصى عـن طريـق البروتسـتانتى الاسترالى مايكل روهان فى ١٩٦٩/٨/٢١ ، ونلاحظ هنا أن ذلك الشخص لـيس يهوديـاً ولا إسرائيلياً ، بل مسيحى بروتستانتى أسترالى ، وقد تم القبض عليه واعترف بالموضوع ، إلا أن المحكمة الإسرائيلية أصدرت أمراً بإطلاق سراحه بدعوى أنه مصاب بنوع من الجنون المتقطع ، وأنه أثناء المحاولة كان واقعاً تحت سطوة إحدى نوبـات الجنـون هـذه . وقـد تكـررت المؤامرات لحرق أو هدم المسجد الأقصى بعد ذلك مرات كثيرة وعلى سبيل المثال لا الحصـر تآمر عدد من أتباع " عصبة الدفاع اليهودية " عام ١٩٨٠ بقيادة مائير كاهانا ، وباروخ جرين وخططوا لنسف المسجد الأقصى وفى عام ١٩٨٢ خططت جماعة سرية صهيونية مكونة مـن ٢٧ شخصاً بقيادة يهودا عتسيون لنسف المسجد الأقصى وعدد آخر من المساجد فى القـدس المحتلة ، وقد ألقى القبض على هؤلاء وسرعان ما تم إطلاق سراحهم، ولايزال يهودا عتسيون حتى اليوم يحرض علناً على نسف المسجد الأقصى ، وفى عام ١٩٨٩ قامت مجموعـة مـن جماعة " جوش أمونيم " باقتحام المسجد الأقصى ، وهذه المحاولات "محاولات اقتحام المسـجد الأقصى تتم سنوياً وخاصة فى الذكرى السنوية لهدم هيكل سليمان المزعوم ، كما قام فى نفس الاطار اريل شارون قبل أن يصبح رئيساً للوزراء بدخول المسجد الأقصى عـام ٢٠٠٠ وقـد قامت الحكومة الإسرائيلية وقتها بحراسته بـ ٣٠٠ جندى إسرائيلى ، وقد كانت هذه المحاولة سبباً فى إندلاع انتفاضة الأقصى الفلسطينية .

ونلاحظ هنا أن المؤسسة الرسمية الإسرائيلية والتى لم تطلق بعد إشارة البدء فى هدم المسجد الأقصى على أساس أن الظروف لم يتم إعدادها بعد فى اطار حسـابات معينـة ، إلا أن تلـك المؤسسة تطرح حالياً فتح المسجد الأقصى لزيارة اليهود والصلاة فيه لليهود ، على غرار ما يحدث فى الحرم الابراهيمى بالخليل ، الذى فرض عليه التقسيم الوظيفى فتحـول الـى جـامع وكنيس معاً ، أى تتم فيه الصلاة للمسلمين ولليهود على حد سواء ، كما أن المؤسسة الرسمية الصهيونية تقوم من وقت لآخر بعمل حفريات وأنفاق ومشروعات مشـبوهة حـول المسـجد الأقصى وتحته بهدف زعزعة أساساته تمهيداً لهدمه أو سقوطه من تلقاء نفسه ، كما أن تلك

المؤسسة الرسمية قد نادت بضم القدس رسمياً بكاملها الى دولة إسرائيل عقب احتلالها مباشرة، وكثفت عمليات الاستيطان الإسرائيلى فيها وحولها ، وإنشاء مستعمرات ، وهدم بيوت الفلسطينيين فيها ومضايقتهم ودفعهم الى ترك القدس ، وتغيير الطبيعة السكانية للمدينة ، وطمس المعالم الاسلامية والمسيحية فيها ، بهدف تحويلها الى الطابع اليهودى ، وهذا كله فى اطار هدم المسجد كمحصلة ونتيجة ومن ثم بناء الهيكل !!

ويعترف الصهيونى " شاحر زليجر " أنه يوجد حالياً عدد من المنظمات الإسرائيلية متفقة فيما بينها على تدمير كل مساجد القدس فى أثناء صلاة الجمعة بما فيها المسجد الأقصى وذلك بهدف تدمير المساجد وقتل أكبر عدد من المصلين فى نفس الوقت ٠

وفى الاطار نفسه تأسست ما يسمى بجماعة أمناء الهيكل عام ١٩٨٨ وحصلت على ترخيص رسمى إسرائيلى بممارسة نشاطها تحت مسمى " مؤسسة العلوم والأبحاث وبناء الهيكل " وكان مؤسسها هو " يسرائيل اريبل " ، ويقوم أعضاء هذه الجماعة المشبوهة حالياً بجمع وإعداد المواد اللازمة الخاصة ببناء الهيكل ، وقد أعدت الجماعة رسماً تخطيطياً للهيكل المزمع إقامته مكان المسجد الأقصى ، ويرى هؤلاء ضرورة هدم المسجد الأقصى عاجلاً أو آجلاً لأن هيكل سليمان حسب زعمهم يقع تحته مباشرة ، ويقول زعيم تلك الجماعة الحاخام " مناحم مكوبر" : " أنه فى كل الأحوال وتحت أى ظروف سوف يتم بناء الهيكل وسوف يتم هدم المسجد الأقصى ، وأنه فى الوقت الذى سنحصل فيه على الضوء الأخضر سيتم بناء الهيكل خلال بضعة أشهر فقط باستخدام أحدث الوسائل التكنولوجية ، وأن المساجد الموجودة فى تلك المنطقة بما فيها المسجد الأقصى وقبة الصخرة هى مجرد مجموعة من الأحجار يجب إزالتها"٠

دور الأصولية الإنجيلية فى قيام ودعم إسرائيل

الأصولية الإنجيلية ، أو الصهيونية المسيحية ، هى تيار مسيحى كبير له الكثير من الأتباع والمؤسسات ومراكز النفوذ والكنائس والصحف والقنوات التليفزيونية والإذاعات والبنوك وغيرها فى أوروبا وأمريكا ، ويعتمد هذا التيار أساساً على أتباع المذهب المسيحى البروتستانتى ٠

وقد لعب هذا التيار دوراً كبيراً فى نشأة إسرائيل ودعمها حتى اليوم وله نفوذ كبير داخل مؤسسة الرئاسة الأمريكية بل إنه يلعب دوراً مهماً فى توجيهها ، بل إن رؤساء أمريكيين مثل ريجان كان من المنتمين إلى هذا المذهب وكذلك يتأثر بهم الرئيس الأمريكى جورج بوش الابن.

ويؤمن أتباع هذا المذهب أن هناك ثلاثة إشارات إلهية يجب ان تتحقق قبل أن يعود المسيح الى الأرض وهى قيام دولة إسرائيل من النيل إلى الفرات ، وامتلاك مدينة القدس ، وإعادة بناء هيكل سليمان ، وأنه بعد تحقق تلك الإشارات فإن معركة هرمجدون وهي معركة يعتقد الانجيليون أنها ستقع في سهل مجدون القدس وعكا وأن التنبؤ بها ورد فى أسفار حزقيال ويوحنا ويوشع وهى تقول إن قوات الكفار سوف تدمر فيها، وإن المسيح سوف يظهر فوق أرض المعركة ويرفع بالجسد المؤمنين به ويخلصهم من الدمار ومن ثم يحكم العالم مدة ألف عام حتى تقوم الساعة ٠

ووفقاً لهذه العقيدة الدينية فإن الانجيليون يعتبرون أن دعم قيام إسرائيل واجب شرعى مسيحى وكذلك دعم توسعها والاعتراف بالقدس عاصمة لها وكذلك تمويل الاستيطان اليهودى فى الأرض المحتلة ، بل أكثر من هذا فإن عليهم دعم المخططات الرامية إلى هدم المسجد الأقصى وإعادة بناء هيكل سليمان ٠

وفى الحقيقة فإن نشأة الأصولية وانتشارها يخضع لأكثر من تفسير ، فالبعض يعتقد أن اليهود نجحوا فى التسلل إلى دوائر الكهنوت المسيحى واستطاعوا إدخال العقائد الخاصة بقيام إسرائيل واحتلال القدس وإقامة هيكل سليمان فى صلب الإيمان المسيحى وخاصة البروتستانتى وأن ذلك تمهيد لعودة المسيح بحيث أصبح دعم المخطط اليهودى لإقامة إسرائيل من الفرات الى النيل واجب مسيحى شرعى ٠

ويرى البعض الآخر أن دهاة الساسة الأوروبيين ، المعادين للسامية والكارهين لليهود هم الذين أنشأوا هذا المذهب لضمان تأييد مسيحى واسع لذلك على أساس أن هذا الأمر يجعل اليهود يفكرون فى قيام وطن لهم فى فلسطين على حساب العرب المسلمين ، وبذلك يضرب هؤلاء عصفورين بحجر واحد ، أولهما هو التخلص من اليهود على أساس أنهم سبب البلاء فى أوروبا وأنهم نفاية بشرية يجب أن تتخلص منها أوروبا ، وفى نفس الوقت تحقيق نوع من التآمر ضد العرب والمسلمين واستخدام اليهود كقفاز لضرب الإسلام والمسلمين على اعتبار أن هناك عداءً تاريخياً وصراعاً مستمراً لم يحسم حتى الآن بين الحضارة الإسلامية والحضارة الأوروبية .

وفى الواقع فإننا نرى أن التفسيرين صحيحان وأن المخطط اليهودى تلاقى مع رغبات دهاة الساسة الأوروبيين المعادين للسامية وأن اللقاء بين الرغبتين أنشأ هذا التيار ونفذ هذا المخطط فقيام إسرائيل وتوسعها يحقق هدف اليهود ويحقق هدف الأوروبيين فى وقت واحد على حساب العرب والمسلمين .

****

وإذا بحثنا فى هذا التيار وظروف ظهوره ، نجد أنه اتجاه قديم فى السياسة الأوروبية ، فعلى حين كانت الكنيسة الكاثوليكية تتمسك باعتقادها بأن ما يسمى بالأمة اليهودية قد انتهى وأن الله طرد اليهود من فلسطين الى بابل عقاباً على صلب المسيح ، وكانت الكنيسة الكاثوليكية تعتقد أن النبوءات الدينية التى تتحدث عن العودة تشير إلى العودة من بابل وأن هذه العودة قد تمت بالفعل على يد الإمبراطور الفارسى قورش .

ثم جاءت ما يسمى بحركة الإصلاح الدينى المسيحى الذى تمخضت عنه البروتستانتية ثم انتشار المذهب البروتستانتى فى أوروبا وأمريكا ليكون الأرض الخصبة لنشأة المسيحية الصهيونية والإيمان بضرورة قيام إسرائيل وبناء المعبد كتمهيد ضرورى لظهور المسيح ، وتكريساً لهذا التحول أصبح العهد القديم " التوراة " هو المرجع الأعلى لفهم العقيدة المسيحية وبلورتها ، وفتح باب تفسير نصوصه أمام الجميع لاستخراج المفاهيم الدينية دون قيود كما تم اعتبار اللغة العبرية باعتبارها اللغة التى أوحى بها الله إلى أنبيائه واللسان المقدس الذى خاطب به شعبه المختار هى اللغة المعتمدة للدراسة الدينية ، ومن خلال ذلك تغلغل الفكر اليهودى إلى قلب الحركة الدينية المسيحية عموماً والبروتستانتية خصوصاً .

ثم بدأت الدعوة إلى قيام إسرائيل فى فلسطين تظهر على يد علماء الدين المسيحى البروتستانتى ثم رجال السياسة البريطانيين والأوروبيين مثل عالم اللاهوت البريطانى توماس برايتمان ١٥٦٢ – ١٦٠٧ والسياسى البريطانى هنرى منشن ١٦٢١ ثم العالمان الانجليزيان جوانا والينزر كارترايت ١٦٤٩ ثم السياسى البريطانى كروميل ١٦٤٩ ، ثم الفرنسى فيليب جنتل ١٦٥٦،لم يقتصر الأمر فى هذا الصدد على علماء الدين والسياسيين بل تعداه الى الأدباء والفنانين مثل ميلتون ولورد بايرون وكولريدج وألكسندر بوب وجان راسين وجورج إليوت وغيرهم .

ثم تبنى هذه الدعوة اللورد الإنجليزى شافتسبرى ١٨٨٢ وكذلك دوق كنت وجلادستون واللورد بالمرستون وزير الخارجية البريطانى ١٨٦٥ ، بل حتى نابليون بونابرت قد تبنى الدعوة إلى إقامة وطن لليهود فى فلسطين ووجه الجنرال بونابرت نداء الى اليهود ودعاهم فيه بالورثة الشرعيين لفلسطين وطالب فيه بإقامة دولة لليهود فى فلسطين وذلك فى أثناء حملته على الشرق ١٧٩٨ – ١٨٠١ .

واستمر الأمر على هذا المنوال إلى أن ظهر تيودور هرتزل فتبنى هذا الأمر ودعا اليهود الى العمل على تحقيقه وتم بلورة ذلك فى مؤتمر بال عام ١٨٩٧ ، ثم تدافعت الجهود اليهودية والأوروبية الى أن تمخضت عن وعد بلفور سنة ١٩١٧ ، وبعد ذلك حظيت الدعوة بدعم كامل من أوروبا وأمريكا إلى أن قامت دولة إسرائيل عام ١٩٤٨ .

الصهيونية المسيحية فى أمريكا

مع تصاعد قوة ونفوذ الولايات المتحدة ، ومع زيادة وزنها الاقتصادى والسياسى والعسكرى نشطت داخلها الحركة المسيحية الصهيونية ويبلغ عدد المنتمين الى الكنائس الانجيلية التى تعتقد بالمسيحية الصهيونية وضرورة قيام إسرائيل وبناء الهيكل تمهيداً لعودة المسيح حوالى ٧٧ مليون أمريكى ينتمون الى ٢٠٠ طائفة ، وتمتلك هذه الاتجاهات فى أمريكا العديد من قنوات التليفزيون حوالى ١٤٠٠ محطة تليفزيون وإذاعة ، وحوالى ٤٠٠٠ مقدم برامج والعديد من الصحف ووكالات الأنباء بل ومنهم العديد من الشخصيات الأمريكية البارزة كان منهم الرئيس ريجان والقس سيجوارت والقس فالويل والقس بات روبرتسون والعديد من أعضاء الكونجرس ودوائر النفوذ المالى والإعلامى والسياسى الأمريكى ، ويتأثر بهذا المذهب الرئيس

بوش الابن ووزير دفاعه رامسفيلد ووزير العدل أشكروفت ، ويستطيع هؤلاء إقناع الـــ ٧٧ مليون من أتباعهم بأن دعم إسرائيل واجب مسيحى وكذلك ، يستطيعون إقناع عدد أكبــر مــن غير أعضاء الكنائس الأصولية ، أى أنهم عملياً قادرون على خلق رأى عام واسع جــداً فــى أمريكا لتأييد إسرائيل ودعمها ناهيك عن النفوذ اليهودى التقليدى فى الكــونجرس والإعــلام ودوائر المال •

وعلى أى حال فإن مجرد نظرة على المؤسسات التابعة للكنائس الإنجيلية التى تؤمن بالمسيحية الصهيونية يدلنا إلى أى مدى وصل نفوذهم المالى السياسى والإعلامى فى أمريكا ، فهناك على سبيل المثال لا الحصر المصرف الأمريكى المسيحى من أجل إسرائيل ، مؤتمر القيادة الوطنية المسيحية من أجل إسرائيل ، ، منظمة جبل المعبد ، وتبلغ هذه المنظمات فى أمريكــا عمومــاً حوالى ٢٥٠ منظمة تدير آلاف المصارف والصحف والمؤسسات المالية والإعلامية •

وتبشر هذه المنظمات المسيحية بالعديد من المفاهيم داخل أمريكا وخارجها فهى تــؤمن بأن دعم إسرائيل هو التزام دينى ثابت وليس مجرد التزام سياسى متغير ومتحرك ، كما تعتبر شرعية الدولة اليهودية مستمدة من التشريع الإلهى وبالتالى اعتبار قيام الدولــة تحقيقاً للنبوءات الدينية ، التشديد على أن أرض إسرائيل هى كل الأرض التى وعــد الله بها إبراهيم وذريته ، وبالتالى تشتمل كل الأرض الموعودة من النيــل إلــى الفــرات ، استمرار العمل بالشعار الذى يقول إن الله يبارك إسرائيل ويلعن لاعنيها ، وبالتالى فــإن دعم اسرائيل طريق الى بركة الرب ، بل إنه عندما يتنــاقض القــرار الإســرائيلى مــع مواثيق الشرعية الدولية أو القانون الدولى فإنه لا اعتبار لذلك ويجب احتــرام القــرار الإسرائيلى لأنه تعبير عن إرادة الرب ، أما القوانين الدولية فإنها تعكس إرادة الانسان ، ومن الضرورى احترام إرادة الرب إذا ما تناقضت مع إرادة الانسان•

الفهرست